منشورات السبيل 12

إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة

(من مناهضة الطرقية إلى مقاومة الاحتلال)

الشيخ محمد المكي الناصري

رحمه الله تعالى

(1324هـ - 1414هـ)

(1906م-1994م)

دراسة وإعداد

إدريس كرم

تخريج وتحقيق

محمد برعيش الصفريوي

الطبعة الأولى

جمادى الآخرة 1431 هـ - يونيو 2010م

الكتاب	:	إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة للشيخ محمد المكي الناصري رحمه الله
دراسة وإعداد	:	إدريس كرم
تخريج وتحقيق	:	محمد برعيش الصفريوي
الطبعة الأولى	:	جمادى الآخرة 1431 هـ - يونيو 2010م
الإيداع القانوني	:	2010MO1614

كلمة الناشر

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل الله ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)

آل عمران 102.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) النساء 1.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً) الأحزاب 70-71.

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فمن نافلة القول أن نذكر بأهمية دراسة التاريخ، والاعتناء بما جرى فيه من أحداث ووقائع، إذ لا غنى عنه للقائد أو الباحث أو المصلح أو الداعية، فمن كان له ماض حافل بالأحداث والوقائع العظام لا بد أن يحصّل تجربة تجعله مرجعا للنصيحة ومصدرا للحكمة، ومفزعا لقومه وذويه عند حلول النوائب والمصائب يسترشدون برأيه، ويستنيرون بمشورته، هذا بالنسبة لمن حصل ثمرة تجاربه؛ فما بالك بالذي جمع بين تجاربه وتجارب أمته وباقي الأمم من عرب وعجم، فهذا بتلك المرتبة أولى وأحرى.

ليس بإنســـان ولا عـاقـل *** من لا يعي التاريخ في صدره

ومن روى أخبار من قد مضى *** أضـاف أعـمـارا إلى عمـره

ونظرا لأهمية دراسة تاريخ الأمة في غرس الاعتزاز بالدين في قلوب الشباب المسلم، وزرع الاحترام لمقومات الهوية في شخصيته، عمل أعداء الأمة على الحيلولة بين الأجيال المسلمة وتاريخ آبائها وأسلافها، ليسهل عليهم استلابهم والهيمنة على بلدانهم، وليس هذا من قبيل طغيان نظرية المؤامرة، وإنما هو واقع ليس له من دافع، يشهد له التاريخ، وتنطق به تصريحات ساستهم ومفكريهم.

ولنستمع لأحدهم وهو المستشرق/ المنصر "شاتلي" في كتابه (غزو العالم الإسلامي صفحة 264) موجها للغزاة من بني قومه: "...إذا أردتم أن تغزوا الإسلام وتخضدوا شوكته، وتقضوا على هذه العقيدة التي قضت على كل

العقائد السابقة واللاحقة لها، والتي كانت السبب الأول والرئيسي لاعتزاز المسلمين وشموخهم، وسبب سيادتهم وغزوهم العالم، عليكم أن توجهوا جهود هدمكم إلى نفوس الشباب المسلم والأمة الإسلامية، بإماتة روح الاعتزاز بماضيهم وتاريخهم، وكتابهم القرآن، وتحويلهم عن كل ذلك بوساطة نشر ثقافتكم وتاريخكم ونشر روح الإباحية، وتوفير عوامل الهدم المعنوي، وحتى لو لم نجد إلا المغفلين منهم، والسذج البسطاء لكفانا ذلك، لأن الشجرة يجب أن يتسبب لها في القطع أحد أغصانها".

إن مثل هذا الحقد، ونظير هذا الهدف كانا دوما المحرك للغزاة من صليبي الغرب وعلمانييه، فنراهم على مر التاريخ أحرص على الحيلولة بين الأمة وتاريخها وبين الشباب وعقيدتهم، قال القس الحاقد صامويل زويمر مخاطبا إخوانه المنصرين في مؤتمر القدس سنة 1935: " أيها الزملاء، إنكم أعددتم في ديار الإسلام شبابا، لا يعرفون الصلة بالله، ولا يريدون أن يعرفوها، وأخرجتم بعضهم من الإسلام، ولم تدخلوه المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقا لما أراده الاستعمار، لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا هم له في دنياه إلا الشهوات.. فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز فللشهوات، وفي سبيل الشهوات يجود بكل شيء.. باركتكم المسيحية، ورضي عنكم الاستعمار، فاستمروا في أداء رسالتكم..".

وبلاد المغرب لم تكن في منأى عن مخططات الإنسان الغربي، لكن رغم أن الكيد كان عظيما، والمؤامرات كانت محبوكة متقنة، إلا أن الله سبحانه قيض رجالا ضحوا بأوقاتهم وأموالهم وتفانوا في فضح مخططات العدو، ومن هؤلاء الأستاذ الشيخ محمد المكي الناصري رحمه الله تعالى رحمة واسعة، فقبل أربع سنوات من انعقاد مؤتمر القدس التنصيري المشار إليه، عقد مؤتمر جمع ممثلين عن دول العالم الإسلامي في القدس سنة 1931م كان الشيخ ممثلا للمغرب فيه حيث ألقى تقريره حول سياسة فرنسا البربرية في المغرب.

فالشيخ الناصري كان مثالا للشباب الذي فهِم مكامن الأخطاء، وطبيعة الأدواء التي أصيبت بها البلاد، فكانت من أهم أسباب ضعفها التي يسرت على العدو المحتل أن يستولي على مقاليد الحكم فيها ويفرض على السلطان نظام الحماية الغاشم، وكانت البدع المحدثة والخرافات السائدة آنذاك في نظر الشيخ والكثير من إخوانه ممن تربوا على العقيدة السلفية الصحيحة واستفادوا من جهود الشيخ السلفي الجليل أبي شعيب الدكالي وتلامذته السبب المباشر في تردي الأوضاع بالمملكة.

ونظرا لكون الزوايا والطرق الصوفية أكبر مسؤول عن شيوع تلك البدع والخرافات، مع ما كان لها من سلطة على الناس وقوة في توجيههم، ارتأى هؤلاء الشباب أن العمل على إصلاح الأوضاع المزرية والخروج من

براثن الجهل والتخلف، وبث روح الجهاد في قلوب المغاربة لا بد أن يبدأ بإصلاح العقيدة وتحرير الناس من سلطة الخرافة وسطوة البدع.

وفي جرأة وشجاعة، وإيمانا منه بخطورة البدع على الإسلام والمسلمين قام الشيخ الأستاذ الناصري بتأليف كتاب كان بمثابة القنبلة التي أفزعت أرباب الطرق وسدنة الزوايا دعما منه لأولئك الشباب المصلحين، سماه: **"إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة"**.

جاء هذا الكتاب والمغرب يغط في ظلام الجهل والفقر والأمية والتخلف والبدع والخرافات، والضعف والهوان، جاء وأغلب الناس يعتقدون أن الميت يمكنه أن يؤثر في الحي السقيم فيذهب عنه سقمه، وأن له من البركة ما يتنزل بمجرد دعائه المطر، فأصبح الأحياء عبيدا للأموات، وصار الناس يسألونهم المال والولد، ويتضرعون إليهم لكشف السوء عنهم.

وقد وصف الشيخ حال المغاربة يومئذ بقوله: "فمنهم الذين اتخذوا القبور حرمات ومعابد، فبنوا عليها المساجد والمشاهد، وزخرفوها بما يجاوز حد السرف بمراتب، واصطلحوا فيها على بناء النواويس واتخاذ الدرابيز والكسا المذهبة وتعليق الستور والأثاث النفيسة، وتزويق الحيطان وتنميقها، وإيقاد السرج فوق تلك القبور ككنائس النصارى وسَوق الذبائح إليها، وإراقة الدماء على جدرانها، والتمسح بها، وحمل ترابها تبركا، والسجود لها،

وتقبيلها، واستلام أركانها والطواف حولها، والنذر لأهلها، وتعليق الآمال بهم، والتوسل إليهم بالله ليقضوا لسائليهم الحوائج...

ومنهم من لم يرضوا بالشرع المبين، فابتدعوا أحكاما في الدين، وشرعوا واجبات وسننا ومستحبات، واخترعوا عبادات وقربات، لم يأت بها الإسلام ولا عهد له بها، كأن الله تعالى ترك لنا ديننا ناقصا فأكملوه، أو أودع لنا فيه سبحانه بعض الفساد فلم يوافقوا عليه وأصلحوه...

ومنهم جماعات اتخذوا دين الله لهوا ولعبا، فجعلوا منه القيام والرقص حالة الذكر الجهري، ظانين أن ما يفعلونه من الرقص حالة الذكر عبادة، مع أن من ظن ذلك تجب عليه التوبة، فإن ناظر على ذلك، وقال: إنه عبادة يتقرب بها الله تعالى يخالف الإجماع فيكون عاصيا آثما إن لم يكن كافرا بناء على القول بتكفير مخالف الإجماع".

ونحن بدورنا إذ نعيد نشر هذا الكتاب القيم إنما نبتغي نفض الغبار عن مرحلة لا يعلم الكثير ممن قطعوا سنوات التعليم في المدارس عنها سوى شذرات لا تؤثر في عقل ولا تستقر في قلب، لأن الذين وضعوا هندسة التعليم لم يكن يهمهم أن يبنوا النفوس أو ينشئوا العقول أو يحركوا القلوب، وإنما كان غرضهم قطع الماضي عن الحاضر ليتشكل مستقبل هو حاضرنا نحن اليوم، عمدته الشباب لكن معظمهم صدق فيه وصف القس زويمر: "لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا همَّ له في دنياه إلا الشهوات..".

ومما يوضح أهمية إعادة نشر كتاب إظهار الحقيقة حاجة الناس لمثله اليوم حيث إن الأمراض التي كانت الأمة الإسلامية تشكو منها زمن تأليفه ما زالت تنهك جسمها، وتفت في عضدها إلى الآن، وقد بينها المؤلف رحمه الله تعالى حاصرا إياها في خمس:

"*أولها: احتجاب نور الشريعة عن أنظار العالم الإسلامي وراء ستر تقليد من لا علاقة له بالدين.

*ثانيها: شيوع البدع والأحداث ونزولها منزلة أمهات المسائل الدينية.

*ثالثها: استكانة النفوس لتلك البدع والركوع أمامها من العلماء جهلا أو تجاهلا أو تأولا وتقولا، ومن العامة تقليدا لهم.

*رابعها: قعود أهل الإيمان والنظر الصحيح عن بيان حقيقة الدين الإسلامي، خوفا من علماء السوء (وهم كثيرون) أن يثيروا العامة عليهم، كما اتفق ذلك لكثير من أهل العلم الصحيح المتقدمين وبعض العلماء الموجودين.

*خامسها: وقوع المسلمين في الحيرة إذا توجه عليهم اعتراض في أمر، وقامت عليهم حجة العقل في قبحه ظنا منهم أن ما هم عليه هو الدين.

وهذه الأمراض والأعراض كافية لأن تفقد الدين حياته الأدبية (لا قدر الله)، ولولا أن أصول الدين محفوظة من التغيير والتبديل لم تصل إليها يد عابث لما بلغنا شيء من حقائق الدين، ولاندثر كما اندثر غيره من الأديان التي نالت أصولها أيد المتلاعبين والأمر لله ما شاء فعل".

فالكل للأسف الشديد يرى أن الكثير من البدع والخرافات والضلالات والترهات التي أُلِّف الكتاب من أجل علاجها ما زالت تتسلط على عقول الكثيرين من أبناء بلدنا العزيز، وتعمل على استمرار أسباب التخلف وتحول دون تحقيق تقدم وتنمية مبنية على الدين الصحيح والعقل الصريح غير المناقض لشريعة الإسلام وهدي الرسول خير الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وأخيرا لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ الفاضل الباحث إدريس كرم على خصه جريدة السبيل بنشر هذا المؤلَّف القيم، والذي قدم له بدراسة مفيدة جدا، تسلط الأضواء على أهم الأحداث التاريخية التي سبقت صدوره، مما يعطي القارئ فرصة استشعار الأجواء التي سُطِّر فيها، فيقدِّر الجهود العظيمة التي بذلها الشيخ وإخوانه من الشباب رحمهم الله تعالى في تحرير عقول المغاربة من قيود التقليد والجهل، وفك نفوسهم من أغلال البدع والخرافة، مرشدين إياهم إلى اتباع منهج السلف الصالح وطريقهم، وذلك بنشر الأدلة من القرآن والسنة وآثار الصحابة والتابعين وأقوال الزهاد والعلماء الربانيين.

كما أشكر الأخ الأستاذ محمد برعيش الصفريوي على ما بذله من جهد في تخريج الأحاديث التي وردت في الكتاب، وضبطه للآيات مع ترجمته للأعلام وعزوه الأشعار لقائليها.

فنسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وأن يكتب لكل من أعان على إخراجه للناس المثوبة والأجر وأن يرحم صاحبه ويفسح له في قبره مد بصره.

وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم.

إبراهيم بن المهدي بن موسى الطالب
غفر الله له ولوالديه

سلا، في يوم الجمعة 13 جمادى الآخرة 1431هـ
موافق 28 ماي 2010م

سنة المكاشفة والتحولات الكبرى

تعتبر سنة 1925م سنة المكاشفة والتحولات الكبرى، حيث ظهر فيها بجلاء حقيقة التدخل الأجنبي بالمغرب، سواء من طرف اسبانيا أو فرنسا، وحقيقة الدفاع المستميت عن السيادة المغربية، وحقيقة النوايا التي تراد بالمغرب والمغاربة أرضا وشعبا ودينا وحضارة.

إنها سنة المعارك الفاصلة في الشمال والجنوب والوسط، التي قادتها الجيوش الاستعمارية، والتي أبرزت أن تلك الجيوش لم تكن تحارب صعاليك كما قال المارشال "ليوطي" في خطاب ألقاه يوم 20 يوليو سنة 1924 بمناسبة الاحتفال بتدشين تمثال النصر بالدار البيضاء: "صعاليك كان ديدنهم دائما السلب والنهب والإرهاق، والذين لم يجدوا أمامهم إذ ذاك قوة قائمة على أساس النظام، لمقاومتهم وردعهم عن غوايتهم (..)" سمط اللآلي ص:110.

ولم تكد تمر السنة على هذا التصور، حتى كتب المارشال إلى حكومته، بعد اشتداد ضربات المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي وسّع جبهته نحو الجنوب معلنا الحرب على فرنسا، يقول: "لا يمكن أن يكون هناك شيء أسوأ لنظامنا من إقامة دولة إسلامية مستقلة حديثة التنظيم، على القرب من فاس، دولة تجعل من "بن عبد الكريم" مركز ارتكاز، لا بالنسبة للمنشقين عنا

فحسب، بل بالنسبة لجميع العناصر المغربية، وخاصة الشبان الذين اتسعت نظرتهم، بسبب تطور الأحداث في المشرق العربي، واللذين نشأت في أذهانهم مطامع الكراهة لنا" روبير منطاني، أورده: مصطفى العلوي في الحرب المغربية الفرنسية الاسبانية 1906-1936 ص: 344.

إنه نفس الرأي الذي توصل له ضابط الشؤون الأهلية "ربير منطاني"[1] الذي كلف من طرف الماريشال "ليوطي" بدراسة تقييمية للعشرية الأولى من الاحتلال والذي جاء فيه: "لا يخفى على الملاحظ اليقظ المتتبع للمجتمع الأهلي، أن المؤشرات تتعدد على كون هذا البلد يعرف منذ أربع سنوات -على إثر أحداث الريف- عملا داخليا عميقا، يمكننا من خلال رصده، أن نتبيّن منذ الآن توجهات "المغرب الشاب"، أكيد أن في الوقت الذي تتأكد فيه مظاهر قوتنا المادية، وتتحسن فيه تجهيزاتنا الاقتصادية، وتكتمل سيطرتنا الإدارية (..)، تتشكل.نخبة تعي بشكل متزايد، الخطر الذي يؤدي إليه الانغلاق، وتحاول أن تعمل من أجل الدفاع عن المستقبل، وإثبات حيويتها،

[1] ولد بتاريخ: 19/ 01/ 1893م دخل المدرسة الحربية 1911م ساهم في الحرب الأولى، كضابط في البحرية الفرنسية وأعد الإجازة في الفلسفة وهو على ظهر طرادة عسكرية ما بين 1914- 1917، التحق بالمغرب سنة 1918م بفرقة الطيران البحري بقاعدة المهدية ألحقه ليوطي بإدارة الإقامة العامة مكلفا بالبحث الميداني، للتعرف على الذهنية المغربية، حيث تعلم العربية والبربرية، ساهم في إنشاء مركز الدراسات العليا للإدراة الإسلامية بباريس سنة 1936م لتكوين ضباط الشؤون الأهلية المرشحين للعمل بالمستعمرات الفرنسية، غادر المغرب سنة 1945م، انظر جريدة الاتحاد الاشتراكي عدد: 8445-03/ 01/ 2007.

محاولة إيجاد دعامتها إما في الإيديولوجية الغربية، أو القوى الدينية للمشرق، وذلك لمواجهة الحماية.

وتتوقع هتان المجوعتان، أن يفضي نضالها في مدة، قد تقصر، أو تطول إلى التحرر التدريجي لبلدها.

لقد كلفنا الماريشال "ليوطي" منذ سنة 1922م إلى 1924م بالاهتمام بالتطور الفكري والأخلاقي عند الشباب المتخرج من المدارس الإسلامية، ومَكننا درس كنا نلقيه على هؤلاء الطلبة في معهد الدراسات العليا المغربية على التعرف عليهم جيدا، وإصدار حكم في حقهم، تمتزج فيه مشاعر الثقة الأولى، وذكر بعض خيبات الأمل.

إن الانتصارات الغير المنتظرة، التي حققها عبد الكريم، خلال فترة أبريل يوليو 1925م، أدت فعلا وبشكل سريع إلى إيقاظ سكان المغرب الفرنسي، من الفتور والسلبية، التي أظهروها من تقدم حمايتنا، وكانت المدن بطبيعة الحال أكثر حساسية لهذه الصدمة.

إن قدماء تلاميذ الثانويات الإسلامية (تأسست سنة 1916م) يأملون انتصار بطل الاستقلال ابن عبد الكريم في مجموع المغرب، ومجموعة المسلمين المتقدمين والإصلاحيين في فاس والرباط. والمثقفين الذين على علم بالتطور الحديث في الشرق وتونس، يشاركونهم الإعجاب بأمير أجدير، راغبين أن

تقوم حكومة عصرية مستقلة في الريف، تكون خطوة لتحرير شمال إفريقيا" الاتحاد الاشتراكي جريدة عدد: 8445-03/ 01/ 2007.

إن قراءة هذا التقرير لا يمكن أن يفهم إلا في ضوء المعارك التي خاضها المغاربة منذ احتلال وجدة سنة 1907م، وتصريح وزير الخارجية الفرنسي وقتها، بأن فرنسا احتلت وجدة لتبقى إلى الأبد. انظر: لسان المغرب: جريدة. عدد: 10-12/ 04/ 1907م.

تلك المعارك التي وثقها المؤرخ مصطفى العلوي في كتابه الحرب المغربية الفرنسية الاسبانية 1906-1936م والتي بلغ عدد قواتها 725 ألف عسكري بقيادة ستين جنرالا، والتي جعلت الجنرال "كيوم" يقول: "إن كل قبيلة لم تستسلم لنا عن طواعية وبدون قتال ودون أن تستنفذ آخر ما لها من طاقات في مقاتلتنا" مصطفى العلوي: ص:20 الحرب المغربية الفرنسية الاسبانية مصدر سابق.

والتي جعلت المارشال "ليوطي" يقول في وصية طلبها منه العسكريون المرابطون بمكناس ليكتبوها على تمثال داخل ثكنتهم تذكارا له، فقال لهم: "كلما حصدتم سنبلة قمح تذكروا أن كل حبة فيها مسقية بدماء أبناء فرنسا" العلوي مصدر سابق ص:3.

وعليه نقول بأن الانتصارات الريفية لم تكشف الانتصارات المحلية والإقليمية فقط، بل كشفت التوجهات الثقافية والدينية للأمة، وإصرارها عن الدفاع على الثوابت والمقدسات الدينية والوطنية المتمثلة في الاستقلال وشرعية

الحكم، وآلياته السيادية، حيث رأينا الصراع الذي خاضه السلاطين ضد التدخل الأجنبي، والأثمان التي دفعوها في ذلك مدعومين بأولي الحل والعقد من العلماء والشيوخ والقادة والزهاد، الذين قادوا عمليات الجهاد والصمود في وجه الاحتلال العسكري والثقافي، والذي أدى إلى ظهور شبيبة تجديدية مؤمنة بأن النصر، لن يكون إلا بتوحيد الكلمة، وراء علماء الأمة، الداعين إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، فكان كتاب "إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة"، الداعي إلى منهاج السلف، في محاربة البدع ومقاومة الشركيات، والربط بين الدفاع عن الدين والوطن والسلطان، الذي أراد الاستعمار حصاره، والتحدث باسمه، لمعرفته وتحققه من أن الشرعية لدى المغاربة مكوّن أساسي، في تدبير المعاش والمعاد، انطلاقا مما هو معلوم من الدين بالضرورة، لذلك حرص "ليوطي" بعد تعيينه مقيما عاما إثر أيام فاس الدامية التي دارت بالمدينة بعدما فضح أمر وثيقة الحماية، وذلك من أجل تهدئة الأوضاع، وإبقاء رموز السلطة، والعمل على إفراغها من محتواها الشرعي، في انتظار انهيارها بشكل طبيعي، بعد تطويقها ونزع السلطة منها، وهو ما جاء الكتاب لعلاجه.

مما يجعلنا نقول بأن صدوره يمثل انتقال التدافع من الجانب العسكري إلى الجانب الثقافي والسياسي، والتمهيد لظهور ما سماه "منطاني": "حزب مجددي الإسلام" الذين تزايدت مكانتهم، ومحاولاتهم جمع كل القوى القادرة

على تقريب يوم التحرر من سيطرة أجنبية يحسون بثقلها المتزايد يوما بعد يوم (..)، وذلك من أجل بناء مغرب مسلم موحد ومستقل.

إن ما يشد أكثر انتباه الملاحظ، هو اتصال الشباب المغاربة من مختلف مدن المغرب بواسطة المسرح، اتفاق قدماء تلاميذ الثانويات ومجموعة المجددين في التظاهرات ضد الزوايا (..)". انظر: "توجهات الشباب المغربي في العشرينات" الاتحاد الاشتراكي، ع 8447- 05/ 01/ 2007.

لقد جاء كتاب "إظهار الحقيقة" تتويجا لهذا التنظير، وإن لم يشر له البحث بالرغم مما ترتب عنه من آثار، سنفردها بالبحث في تأليف لاحق بحول الله، وسنكتفي في هذا البحث التقديمي للكتاب الظاهرة "إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة"، لمؤلفه الضعيف -كما قال- أبي عبد الله المكي -تلميذ بمدرسة الحياة-، والمطبوع على نفقة محمد بن العباس القباج، بمطبعة النهضة تونس، محاولين تلمس ما جرى بعد 1907م سنة احتلال وجدة بدون قتال إلى سنة 1925م سنة صدور التأليف.

وقبل الشروع في الدراسة أودّ الإشارة إلى سبب تعلقي بالبحث في هذا الكتاب الظاهرة، وعلاقتي بمؤلفه، وكيف تم اللقاء مع فضيلته؟

هكذا تم اللقاء

في مطلع التسعينيات من القرن الماضي، كان لي شرف اللقاء مع العلامة السلفي، أحد رواد النهضة المغربية، الشيخ محمد المكي الناصري، في أمسية نظمتها السفارة المصرية بالرباط، بمناسبة افتتاح موسمها الثقافي، وقد ألقى فيها الشيخ محاضرة حول العلاقة الثقافية بين المغرب ومصر في مطلع القرن العشرين، مركزا على بيت المغرب بالقاهرة، الذي أنشأه في الثلاثينيات بدعم من الخليفة مولاي المهدي بتطوان، وكان يديره أخوه العلامة الداعية محمد بن اليمني الناصري مؤسس مدرسة الحياة.

وكنت في ذلك الوقت أهتم بالغميس من وثائق الحركة الوطنية ومضمراتها، والذي قادني إلى اكتشاف قضية خطيرة ومهمة هي: دور العلماء والفقهاء في الحركة الوطنية، ومآل ذلك الدور بعد الاستقلال، فكانت المحاضرة فرصة للتعرف على أحد زعماء تلك الفترة، ممن تجاهل جهادهم الكُتّاب، وسكت عن إسهاماتهم المؤرخون، وأصبح لا يعرف من أعمالهم إلا الشاهد منها وهو تفسيره للقرآن الكريم، الذي كان يذاع من إذاعة الرباط مرتين في اليوم، صباحا بعد الفجر، ومساء قبيل المغرب، مسبوقا بتلاوة المقرئ عبد الرحمن بن موسى.

ومنذ ذلك اللقاء الذي طرحت عليه فيه أسئلة بها كثير من الجرأة بسبب قليل من العلم حول الموضوع المتطرق إليه، وحول الدور الذي قام به في مسيرته، مسيرة النهضة المغربية كما يسميها، وبعد إجابات مقتضبة لم تشف غليلي، طلب مني بعد المحاضرة أن أزوره في البيت ليطلعني على ما استشكلته، فكانت منطلق علاقتي به عن قرب، حظيت منه بصفة الأستاذ الباحث المحترم التي دوَّنها عندما قدم مقاله المعنون: "الحركة الفكرية في المغرب الأقصى"، الذي نشرته على صفحات جريدة أنوال 06/ 11/ 1992م، وأمرني بإعادة نشره في جريدة منبر الرابطة التي كان يرأسها بتاريخ 12/ 11/ 1992م بصفته الأمين العام لرابطة علماء المغرب، بعدما تبين له رحمه الله أهمية التراث الذي كنت أنبه إليه، وأسعى إلى نفض الغبار عن أصحابه، جاعلا له مقدمة ارتأيت أن تكون مقدمة لما أقوم به اليوم صحبة ثلة مؤمنة بوجوب إظهار ما أريد إخفاءه وإقصاءه.

يقول الشيخ رحمه الله: "هذا البحث هو أول بحث كتبته ونشرته تحت العنوان أعلاه، مجلة الشبان المسلمين التي سعدت بالمساهمة في الدعوة إلى تأسيسها، وبعملي فيها بصفتي عضوا عاملا مؤسسا، منذ بدايتها إثر حلولي بالقاهرة والتحاقي بالجامعة المصرية، وقد وقع نشره على صفحاتها في حلقتين، الحلقة الأولى في عدد شهر أكتوبر، والحلقة الثانية في عدد شهر نوفمبر 1929م، وكان الغرض منه هو التعريف لأول مرة بوطني العزيز، وبالنهضة الفتية التي أخذت تنتشر فيه منذ سنة 1920م إلى سنة 1929م تاريخ كتابة

هذا البحث، وذلك بفضل العمل الوطني الذي كان ذا طابع سري، والحركة السلفية التي كانت هي الواجهة التي تعمل في العلن، وقد حللت فيه مختلف عناصر تلك النهضة حتى ذلك التاريخ (الواقع والآفاق)، مما يعتبر حصيلة إيجابية لذلك العمل، وإرهاصا لما يأتي بعده من مراحل.

فإلى علماء الشباب وإلى المؤرخين والباحثين الناشئين أهدي هذا البحث الذي هو عبارة عن وثيقة تاريخية عن الفترة الأولى للحركة الوطنية، مكتوبة بنزاهة وموضوعية، منذ 69 سنة بقلم شاهد عيان أسعده الحظ أن يكون من أحد الذين ساهموا في إقامة صرح الوطنية الشامخ البنيان، وشكرا للأستاذ الباحث المحترم السيد إدريس كرم الذي بادر من جهته بنشر هذا البحث مشكورا على صفحات الزميلة أنوال لفائدة قرائها الأعزاء" (م.م.ن: أي محمد المكي الناصري).

بعد هذا واليت نشر مجموعة أخرى من المقالات سواء للشيخ أو غيره، وكنت كلما صدر لي بحث أو مقال إلا وهرولت إليه بنسخة فيناقشني في التعليق الذي أرفقه به، ويعطيني رحمه الله من المقالات الخاصة به وبغيره، ما يوضح لي غامضا، أو يشرح موقفا، وأخيرا قرّ قراره على أن يعهد لي بالإشراف على جمع تراثه لأجل إخراجه، وهكذا قضيت معه سنتين من العمل التوثيقي المعتمد على محاضراته المخطوطة والمنشورة، سواء على شكل افتتاحيات، أو مراسلات، أو تنظيرات، أو تفسير ديني، أو تراجم لمنشورات فرنسية صدرت عن المغرب، وقد استجلب الكثير منها من عند أصدقائه، أو الخزانات العامة، والمراكز الثقافية، في

كل من القاهرة وسوريا والجزائر وليبيا وبغداد وفرنسا واسبانيا، ناهيك عن المغرب، أنتجت عددا من مشاريع كتب ارتأى عنوانها كالتالي:

- تحت راية الدين
- تحت راية الوطن
- تحت راية العرش
- في مواجهة الاستعمار
- الحماية جناية ما بعدها جناية..

وقد تم طبع بعض تلك الكتب، مثل: "تحت راية العرش" في جزأين، وآخر حول الشباب، وأعيد طبع الظهير البربري مع إضافات، إلا أن وفاة الشيخ أوقفت المشروع الذي كان يهدف إلى إنشاء مؤسسة الشيخ محمد المكي الناصري، وبموته أعاد التجاهل بسط ردائه على تلك الأعمال، وأغلقت مكتبته على ما بها إلى اليوم.

وإذ نحاول اليوم إعادة إخراج أول كتب الشيخ الإمام إلى القراء، ونعني به "إظهار الحقيقة" تمشيا مع منهجنا الذي انتهجناه منذ أن حملنا القلم في السبعينيات من القرن الماضي، والذي يهتم بالمنسي والمقصي والمهمش والمحارب، والبرنامج الذي كان فضيلته ارتضاه، ومن أجله أنشأ مؤسسة الناصري للدراسات والأبحاث، التي أعد لها مقر رابطة علماء المغرب بديور الجامع مقرا، إلا أن المنية عاجلته، راجين من الله أن يوفقنا لتحقيق ما أراد الشيخ الإمام إحقاقه وبلوغه.

العلاقة بين الاحتلال العسكري والاحتلال القانوني

ظهر كتاب "إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة" في وقت اتسم باشتداد معركة المقاومة ضد الغزو الاستعماري الفرنسي والاسباني، والتمهيد للحكم المباشر عن طريق سن القوانين التنظيمية في مختلف مجالات الحياة، معتمدة على ما أنتجه رواد البعثة العلمية التي سيرتها فرنسا لدراسة أحوال البلاد سنة 1906م حتى إذا كانت سنة 1913م، ولما يمض سنة على فرض الحماية، أنشأت سلطاتها مدرسة عليا بالرباط أطلق عليها: "مدرسة اللغة العربية واللهجات البربرية"، لتكوين أطر الحماية الذين سيناط بهم تنفيذ سياستها، وتخريج تراجمة تم تنظيمهم وفق قرار 12 ماي 1913م، تلا ذلك تتابع الظهائر والمراسيم التنظيمية والتقنية أمثال: ظهير تأسيس الوزارة المخزنية، الذي نص على أن الصدر الأعظم، أي الوزير الأول والوزراء، عليهم أن يتفقوا قبل اتخاذ جميع الوسائل والقرارات مع جناب كاتب الدولة المغربية العام -الذي هو نائب المقيم العام-.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الظهير ينص على أن وزير العدلية الذي يتعلق عمله (بأمور الشرع وتنفيذ الأحكام عليه أن يتفق مع جناب الكاتب العام قبل

اتخاذ جميع الوسائل والقرارات) (10 ذي القعدة 1330هـ)، أي أن المسؤول عن تنفيذ الشرع صار مقيدا وموكولا إلى نظر المقيم العام، شأنه شأن الوزير الأول الصدر الأعظم، وبذلك يكون القضاء قد خرج من يد السلطان مما ينافي بنود الحماية.

وهكذا تتابعت الظهائر والقرارات باسم السلطان أو باسم الصدر الأعظم، تشرع ما تراه مناسبا لإدارة الحماية كما سنرى، حيث صدر ظهير في ضبط محال بيع المسكرات بتاريخ: 29/ 06/ 1913م، وظهير بشأن تشكيل شورى المجلس العالي لإدارة الأحباس 15/ 06/ 1914م، وتعيين مدير إدارة التلغراف سابقا المسيو بيارني من طرف رئيس الاتصال بإدارة الجيوش مكلفا بإدارتها في الفاتح من مارس 1914م، وفي 11 شتنبر 1914م صدر ظهير يأمر بإقرار ومراعاة العوائد البربرية، وفي 04/ 09/ 1914م صدر ظهير في ضم الأراضي التي تركتها قبائل غياتة للأملاك المخزنية، والتي توجد برأس وادي إيناون، مما يلي الحياينة حيث وصفهم الظهير (بالفساد الذين تركوا أرضهم مهملة، بعدما انتصرت عليهم الجيوش "وليس المحلة السلطانية") انظر الجريدة الرسمية 47 بتاريخ: 29/ 03/ 1914م، وفي 01/ 05/ 1914م صدر ظهير بشأن قانون المطبوعات، بناء على الضابط المتعلق بالمطبوعات العمومية، المنشور في الجريدة الرسمية الفرانساوية نيميرو 79 بتاريخ: 01/ 05/ 1914م. انظر الجريدة الرسمية العدد: 52.

وفي السنة نفسها صدر قرار من الصدر الأعظم بناء على ظهير 21 شتنبر 1914م يحدد القبائل المتبعة للعوائد البربرية في: بني مطير، جراوان، اخلاون، ايت عيدن، ايت مناصف، من بني مكيلد، ايت ركولو، ايت يعقوب، من زيان.

وفي 1916م صدر ظهير بالجريدة الرسمية ع:148 يقضي بإحداث مدرسة إسلامية للتعليم الثانوي بالرباط وفاس ومدارس ابتدائية أهلية، وفي 22 شتنبر 1915م صدر بلاغ يقضي بجعل اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية للجماعات البربرية، وفي 15 نونبر 1922م صدر ظهير لتأسيس قواعد خصوصية متعلقة بتفويت العقارات للأجانب بالقبائل ذات العوائد البربرية، وفي 23/ 07/ 1916م صدر ظهير في ضبط أمر المعاوضات في أملاك الأحباس التي عليها المنفعة، محيلا على الظهير الصادر في 12/ 07/ 1913م، والظهير الصادر في 27/ 04/ 1914م الأول في عقد المعاوضات في ضبط منافع الكراء، وفي 11/ 01/ 1913م صدر ظهير إصلاح القضاء، (عدّل في 07/ 03/ 1914م، وفي 30/ 04/ 1916م، وفي 22/ 08/ 1921م، وفي 29/ 04/ 1924م..)، وقانون مصادرة الأراضي في 11/ 01/ 1914م، وظهير منظم للبلديات في 08/ 04/ 1917م، والذي غير وعدل بتاريخ: 27/ 01/ 1923م و22/ 12/ 1926م يحدد أصول اختصاصات المصالح البلدية الفرنسية. وظهير تمييز الراية المغربية 29/ 06/ 1915م، وظهير حرية

الصحافة 27/ 04/ 1917م عدل في 09/ 02/ 1918م و20/ 11/ 1920م أخذا عن القانون الفرنسي الصادر في 29/ 07/ 1881م، وفي 11/ 01/ 1921م صدر قرار وزيري في تعيين القبائل ذات العوائد البربرية.

وفي 08/ 10/ 1924م أنشئت لجنة درس وتنظيم العدلية البربرية، وفي 1920م صدر برنامج للدراسة يمنع في جميع مدارس البادية تعليم العربية الفصحى، ويحض على عدم إنشاء المكاتب، لذلك.

وفي 1919م صدر ظهير بإعادة تنظيم المنهاج الدراسي للثانويات الإسلامية بغية الزيادة في تكريس اللغة الفرنسية، وذلك بتأسيس مدرستين إسلاميتين للتعليم الثانوي بالرباط وفاس، وفي 11 شتنبر 1919م صدر ظهير يأمر باحترام ومراعاة النظام العرفي الجاري به العمل في القبائل التي استتب الأمن فيها. وهو ما يتنافى مع تصريحات "ليوطي"، الذي قال: "أهم عمل من أعمالنا في المغرب هو فتح الأراضي للاستعمار، وخلق التعاون بين الأهالي والأوربيين، وتشريك الأهالي في الوظائف العامة وجعلهم يقبلون تعليمنا ومناهجنا"، وقال في خطبة أخرى: "إن الشرط الأساسي لاستمرار إقامتنا في المغرب وخلود هذه الإقامة، هو تكثير روابطنا مع الأهالي، بالتعاون الزراعي، والتعاون الصناعي، والاشتراك في الأعمال، وأسمى من هذه الأشياء كلها، الاشتراك العقلي، اشتراك الأفكار والقلوب". ترى كيف سيتم ذلك الإشراك وحمامات الدم تراق هنا وهناك، منذ دخول وجدة واحتلال الشاوية، وأيام

فاس الدامية في سنة 1912م، من 17 إلى 19 أبريل التي سقط فيها حسب بعض الروايات للفرنسيين 65 قتيلا منهم 13 ضابطا، وجرح 578 جنديا، و15 ضابطا، وبين 17 و22 يونيو 1912م قتل من الفرنسيين على ضفة نهر يناون ومشرع بنهين 71 جنديا و9 ضباط، وجرح 119، كما سقط للعدو ما بين 14 غشت إلى 17 من سنة 1912م بالعيون 87 جنديا وجرح 59 منهم 7 ضباط.

أما المغاربة فضحاياهم بالآلاف في الجهات المختلفة التي تغزوها الجيوش الفرنسية، والتي لم يتحدث عنها كتاب "الإظهار" باعتباره كتاب تنظير وأداة عمل فكرية، تأسيسية، تهيئ لمجابهة سلمية، ضد مسخ المجتمع المغربي وتحويله حضاريا ودينيا، كما سنرى في ضوء تلك الظهائر والقرارات المصاحبة للعمليات العسكرية الهادفة لتطبيق تصورات البعثة العلمية التي صاغتها على شكل إصلاحات، يراد إدخالها بناء على معاهدة الحماية واتفاقية الجزيرة الخضراء، والتي أنجزت من أجلها أبحاثا في ميادين القضاء والتعليم والاقتصاد والإدارة الترابية والشؤون المالية، وتنظيم المجال وما يتعلق به من تدابير لاستعمار الأرض ونهب المعادن والثروات المختلفة، التي اقتضت إصدار قوانين تنظيمية تعيد صياغة المجتمع وقناعات أفراده ومرجعياتهم، مما أثار اصطدامات بين المحتل والسلطان، تمثل في تنازله عن العرش رغم المحاولات الإغرائية والتهديدية للإقامة العامة التي سلكت الطريقة نفسها مع

المجتمع، واندرج ذلك إلى المجتمع، ممثلا في القبائل والجيش الذي أعلن تمرده بعدما علم أن السلطان قرر التنازل.

يقول "شارل أندري جوليان" في كتابه "المغرب في مواجهة الامبرياليات": ".. عقب فرض الحماية، قامت وحدات تابعة لكتائب المشاة الشريفة فور شيوع خبر التوقيع بالتمرد على قيادتها في 17/ 04/ 1912م، وهو ما ترتب عنه إبادة جماعية لضباط هذه القيادة، وفور انتقال خبر المواجهات إلى القبائل، تصاعدت موجات الاحتجاج بشكل لم يسبق له مثيل، إلى حدّ أن الأحكام الجائرة، التي كان يصدرها "موانيي" -الجنرال قائد الجيش الفرنسي المحاصر لفاس- بهدف ردع السكان لم تزدهم إلا إصرارا على المواجهة، فقامت عساكر شريفة لتلتحق بالقبائل التي ضربت حصارا كاملا على المدينة من الخارج..، وهكذا طال الاستعداد للجهاد وللمشاركة في إخلاء فاس، وكل مناطق المغرب من الأجنبي، حتى أن الشيخ الهبة النازح من سوس، لم يحظ فقط بدعم السكان، بل وكذلك بدعم القواد الكبار" انظر: "الصحراء جريدة 17/ 04/ 1997م ص:11.

وعن هذه الحالة تقول جريدة "الوستراسيون" ع:17/ 04/ 1912م: "سرعان ما ابتهجنا بالنجاح الفوري لسفارتنا في فاس، وللسهولة التي من خلالها تم توقيع المعاهدة مع السلطان التي تمنحها حماية المغرب.

إننا نعيش في وهم خطير، جاءت لتبدده مأساة مفجعة: لقد قامت فرق الجند الشريف، والتي كنا نعتقد بإمكانية الاعتماد عليها لمساعدتنا في مهمتنا الحضارية، بالانتفاض فجأة وأقدمت على إبادة ضباطها، تلك هي الأحداث التي في غضون يومين أيقظتنا من حلم جميل، لتعود بنا حيث الواقع القاسي.." الصحراء المصدر السابق.

وعنها يقول شاهد عيان محمد بن الحسن الحجوي: "يوم الأربعاء 17 أبريل 1912م ثار العسكر المغربي على ضباطه الفرانساويين، فدخلت شرذمة منه إلى السلطان في الساعة 11:45 بباب البوجات، وقالوا له: "إن الحرابة قالوا: إن مولاي حفيظ ذاهب لحال سبيله فكونوا معنا شخصا واحدا، ومن أراد الشكاية فلا يشتكي عليه، بل على الكومندار والجنرال. ونحن لا نقبل الخدمة إلا مع السلطان..، فأجابهم الوزير المقري: اذهبوا واحترموا في حرم مولاي عبد الله، فصاحوا: بل نذهب للقشلة ونقاتل" إدريس كرم مسائل ورسائل للحجوي ص:68.

أما مولاي أحمد العلوي فيقول عن تلك الأيام: "لقد استقبل المولى عبد الحفيظ وفودا عن القبائل التي كانت توصف بالثائرة، والتي جاءت لأخذ رأيه فيما يجب عمله، فأجابهم: استمروا في المقاومة، إذ أنه إذا كنا ضعفاء على الصعيد الديبلوماسي والسياسي، فلا زالت لنا قوات على الصعيد العسكري، ويجب أن يستمر الكفاح لكي نصبح في وضع أحسن" الصحراء، المصدر السابق.

ويقول الباشا إدريس منو: "كان المولى عبد الحفيظ أيام الحرب الكبرى لعب دورا خطيرا في المغرب..، حيث كان يسرب إلى المجاهدين بالجبال الأموال الضخمة، وكان حاملوا الرسائل والأوراق البنكية يعتمدون عليَّ فأرشدهم إلى الطرق المأمونة، وكانوا يحترفون بحرف لا يؤبه بهم معها، كأن يشتغلوا بنقل الحطب أو الفحم، إن قاربوا مدينة، ولو فتش مفتش بردعته، لرأى فيها أسرارا أو أموالا هائلة ورسائل" انظر المختار السوسي: "على مائدة الغداء" ص:50.

وقريبا من هذا ما فعله مجاهدو آيت خباش الذين كانوا يهربون البارود من الجزائر وسط القرب المملوءة بالماء، حيث كانوا يواجهون الجيش الفرنسي المهاجم لتافيلالت منذ 1900م إلى 1934م. والذين وصفهم الجنرال "هري": "بأنهم كلاب ضالة تستحق الموت"، وقال عنهم الجنرال "جيرو": "بأنهم سلابون محترفون وعلى استعداد لكل المغامرات" انظر لحسن تاوشيخت: "الأعراف بالبادية المغربية ص:28.

فإذا كان هذا هو رأي الضباط والقادة في مواطنين أبرياء يدافعون عن بلدهم، فكيف ستكون السياسة والقوانين الموضوعة لهم؟

من غرائب الاحتلال

إرغام السلطان بعدم التنازل عن الملك مع تجريده من الحكم

لقد كانت ردود الفعل التي أحدثها شيوع الحماية وعدم التزام السلطات الفرنسية بالوفق المنعقد بين السلطان ووزير خارجية فرنسا السابق "دي سيلف" المصرح بأن السلطان إذا اقتضى الحال أن يتنازل عن الملك فله ذلك، ولما اشتعلت الثورة بفاس، طبق السلطان ذلك الوفق، فقامت قيامة صحف فرنسا عليه تطلب إلزامه بالبقاء، حتى تسكن الفتنة، لأن تنازله يزيد في القلاقل الداخلية، وأن الوفق المذكور لا اعتبار به، ثم إن الفرانسويين امتدت يدهم تتهم السلطان بأن له يدا مع أهل فاس في الثورة، وهكذا جمعوا أهل فاس الجديد وقصبة بونافع وأدخلوهم قشلة وأغلقوا عليهم الباب حتى ماتوا جوعا رجالا ونساء، ولم يعتبروا سلطة للسلطان، ولا صدر حكم بإذنه، وأمروا الخطباء بأن لا يتعرضوا للدعاء للمجاهدين، بل يحذف الدعاء للأمير ولفظ: أذل اللهم به رقاب أعدائك الأشراك المعتدين.. -وكان "ليوطي" قد وصل لفاس يوم الجمعة 7 جمادى الثانية، وتسمى حاكما عاما للمغرب-، ومن أعجب استخفاف الفرانساويين بالديانات أنهم أمروا أهل فاس بالبروز

للحفلة -للترحيب بالجنرال- في الساعة الواحدة التي هي ساعة صلاة الجمعة، وجل الناس ما صلاها وبقوا هناك ولم يدخل الجنرال حتى الساعة الخامسة، وقس ما لم تسمع على ما سمعت.

بقي السلطان داخل بيته يطلب التنازل عن الملك وطالما راوده الفرانسويون في الكتب للقبائل والتكلم معهم، وهو لا يريد، ملحا على السفر إلى الرباط، معلنا لـ"رينو" -سفير فرنسا- أنه سيدخل الضريح الإدريسي ويعلن التنازل هناك -وخوفا من عواقب ذلك- وافق "ليوطي" على سفره إلى الرباط، إلا أن التنازل يكون بعد ثلاثة أشهر، فحل بالرباط يوم 13 يونيو 1912م، وهكذا أفسد على الفرنسيين سياستهم بطلبه التنازل، ورفض الإغراءات المالية التي عرضها عليه "ليوطي"، واستمر في خلع مظاهر الملك، واقترح أن يذهب للحج، ويترك خليفة له، ولما أعيت "ليوطي" الحيلة، طلب قاضي الرباط وفاس وأعيانها وأعلمهم أن عبد الحفيظ تنازل عن الملك، وعين ثلاثة أناس ليخلفوه، فلم يقبلوا منه ذلك حيث لا حق له في إلزام الأمة بما لم تحب، وأنه يتكلم معهم من غير واسطة، لكي يعلموا أنهم أحرار في اختيار من شاءوا ليقوم بهذا الأمر على وفق الشريعة، وأمرهم أن يكونوا واسطة بينه والعامة، ليفهموهم هذا القرار.

وقد أطلع المقري القضاة والعلماء والأعيان على ظهير التنازل لداع صحي، وأن ينظروا أحد إخوته. فقرأه قاضي الرباط على الحاضرين ثم قال له

الوزير المقري: "قد اقتضى نظر المخزن تعيين مولاي يوسف سلطانا"،فأجاب الجميع: "الله ينصره" انظر الحجوي ص:122 وما بعدها.

ومن هذه اللحظة ستطلق الحماية يدها في استخدام اسم السلطان، وطابعه، بإدارة الدولة والمجتمع، وإصدار القوانين والمراسيم المغيرة لما كان قائما مما سنفصله إن شاء الله في موضع آخر.

الإصلاح وأهدافه

يقول ليوطي بمناسبة الاحتفال بتدشين تمثال النصر بالدار البيضاء يوم 20 /07/ 1924م: "وبما أني كنت مع الجنرالات درود ودماد وموانيي من شهود الساعات الأولى التي باشرت فيها فرنسا عملها هنا (..)، فالذين كنا نحاربهم ليسو سكان البوادي والحواضر الذين كان لهم تعلق شديد بأراضيهم ومنازلهم، بل كنا نحارب أولئك الصعاليك الذين كان ديدنهم دائما السلب والنهب والإرهاق، والذين لم يجدوا أمامهم إذ ذاك قوة قائمة على أساس النظام لمقاومتهم وردعهم عن غوايتهم (..)" سمط اللآلي ص:60.

ومن خطبته في 9 يوليو 1918م: "إنكم لا تجهلون الانتصار الباهر الذي نالوه في ناحية تازة وفي الجبل الأطلسي بين مكناس وملوية التي كانت سابقا قليلة النظام والأمن والمواصلات".

ومن خطبته في ماي 1921م حول التعليم: "بيد أن هذا التعليم لا يؤثر ولا تظهر نتائجه إلا إذا أعطي بتميز واعتدال" سمط اللآلي ص:111.

قال في 1340هـ: "من أهم تلك النتائج تمهيد الأمن، فخصصت قبائل بني وراين المتمردة عن الطاعة منذ قرون، وكذلك زيان الذين طالما حاربوا

المخزن الشريف (..)، وأن تلك المناطق التي كانت قاعدتها الفوضى والعناد قد أخذت تقل شيئا فشيئا" سمط اللآلي ص:113.

وقال في أبريل 1922م: "أننا لم نأت هنا بصفة فاتحين، بل أتينا لنشر أعلام الأمن والسكينة، ولذلك فإن أغلبية هؤلاء السكان، وصفوتهم، لم ينضموا إلينا بقوة السلاح، بل انضموا إلينا من تلقاء أنفسهم، وقد أعانونا وما زالوا يعينوننا دائما، وسيعينوننا إلى النهاية على كسر شوكة المتمردين الذين أخذ عددهم يقل يوما فيوما بعدما، كانوا عائشين منذ قرون في النهب والسلب، والفوضى، وعدم الاعتراف بأية سلطة قارة" سمط اللآلي ص:120.

يقول سنة يوم 19/ 10/ 1922م في تدشين مسجد باريس: "لما عزمت منذ ثمان سنوات، على أن أحدث في الرباط مدرسة معدة لنخبة الشبيبة تكلمت في شأنها مع جلالة السلطان مولاي يوسف (..)، وما راعني إلا أني وجدته غير مستعد للموافقة على آرائي، وقد ظننت أنه ليس هنالك إلا تأثر عارض، فرجعت بالكرة بعد حين، ولاقيت أيضا نفس ذلك النفور، وأخيرا قال لي جلالته: "ولكن إلى من تريد إسناد إدارة هذه المدرسة ألى فرنساوي؟

فأجبته: "إن هذا أمر معلوم، إذ لا يوجد حتى الآن من الذوات الوطنيين من هو مهيء ماديا للقيام بهذا العمل"، فقال لي جلالته: "إنني أفهم ذلك جيدا، ولكن أترتئي أحدا؟ فأجبته: بنعم، وذكرت له اسم فرنساوي مستعرب، فتهلل وجهه وأجاب حينا بالموافقة، ثم قال لي: "إنني أعرفه جيدا

وأعرف أنه مسيحي، وأنه يربي أولاده على نفس تلك العقيدة، ولذلك فإني متحقق أن عقيدة أبنائنا ستبقى محفوظة مصانة..

هذا وإذا كانت الأساطير تقول غالبا إن الإسلام فوضوي مدمر ليس فيه تسامح، فدعوا رجلا مثلي لم يلاحظ الإسلام في الكتب والمجلات، بل لاحظه في موضعه بالشرق والغرب، ليبرهن لكم بها له من القوى، على كون الأساطير، وعلى الأقل اليوم، باطلة لا أصل لها من الصحة" سمط اللآلي ص:132.

وخطب في المعمرين بمناسبة فاتح 1915م: "لا يخفى عليكم أيها المواطنون المحترمون أنكم متحدون في كل شيء مع الضباط والجنود والموظفين، وإننا لنعلم أنكم في طليعة الفرنساويين الذين أمّوا ساحة الديار المغربية (..)، فكنتم سبب مجيئنا، وسبب بقائنا، بهذا القطر السعيد، كنتم أمس جنودا وصرتم جنود الحاضر" سمط اللآلي ص:44.

وكتب الأب فوكو في مجلة العالمين La Revue Des 2Mondes تاريخ أول ديسمبر سنة 1924م: "إن مملكة فرنسا في غرب وشمال أفريقيا: الجزائر وتونس والمغرب الأقصى وأفريقية الغربية إلخ، سكانها ثلاثون مليونا، ويتضاعف عددهم في ظرف خمسين سنة بفضل السلم (..)، وإذا لم نعرف كيف نجعل هؤلاء الشعوب فرنسية، فسيخرجوننا من أرضهم، والوسيلة الوحيدة لجعلهم فرنسيين هو جعلهم مسيحيين Le Seul Moyen

Qu'ils Deviennent Français Est Qu'ils Deviennent chretiens"، مضيفا: "أنها لبلاد كبيرة ستدخل في حياة جديدة بعد ليل الإسلام الطويل وذلك بفضل جيشنا الافريقي Apres La Langue nuit de lislam" الحاج الحسن بوعياد "الظهير البربري" ص:218.

وقد نشرت مجلة "المغرب الكاثوليكي Le Maroc catholique في عددها 03/ 11/ 1923م مقالة بقلم ميسيو جان كيروا رئيس تحرير جريدة الصليب التي تطبع في باريس: "إن المارشال ليوطي فهم أن التناقض القديم بين العنصرين العربي والبربري هو الكفيل بجلب المصالح لدولة فرنسا، وكان المارشال مدفوعا إلى ذلك بما له من ذكاء حاد يكتشف به جانب المنفعة التي يستخلصها من الرجال والأشياء، وبما شاهد من انقلابات تصدر من سكان جبال الأطلس، فتحقق أن المقاومات البربرية ليست عداء موجها إلى فرنسا، وإنما هي عداء موجه إلى سلطان المغرب.

فاستنتج من ذلك أن تلك القبائل البربرية تطيع حكومتنا أكثر مما تخضع لسلطة السلطان (..)، وهكذا فإنه سمح لهم باتفاق عقدوه مع السلطان بعدم ذكر اسم السلطان نفسه في صلواتهم، وأعفاهم من أداء الضرائب، لهذه الأسباب اكتسبت فرنسا محبة وإجلالا من كثير من القبائل البربرية (..)، إن ميل البربر إلى الخضوع لنفوذنا أكثر من ميلهم إلى الخضوع لسطوة السلطان

(..)، ولذلك فاندماجهم فينا يكون سهلا جدا بشرط أن لا نصادمهم فيها بالقوة".

قال الجنرال "مانجان" في عرض كلامه عن بعض الأهالي المسلمين "بأن تشبثهم بالدين يفوق تشبثهم بشعائر الإسلام، فإذا احترمنا فكرة الدين عندهم، فإننا نتمكن من هدم بناء القرآن وتعاليم محمد.

وهذه حالة البرابرة نفسها فإنهم ينظرون بعين الاستبشاع إلى الرجل غير المؤمن الذي يتجرد من كل الديانات، أكثر مما يستبشعون النصراني المتدين بدين إبراهيم ويعقوب والعابد عيسى الذين يعتبرونه أعظم الرسل.

ومن الآن فإن طريق استيلائنا على البلاد البربرية صارت ممهدة، وسيكون ذلك الاستيلاء بواسطة المدرسة، ولا شك أننا لا نتقرب لهؤلاء الأهالي بالحضارة إلا عن طريق المدرسة التبشيرية لا المدرسة المدنية الملحدة.

ومن الضروري جدا اتخاذ احتياطات لا تبشيرا علنيا يتسبب منه إيقاظ تعصب المسلمين، وينبغي لنا ألا نصادم التقاليد والمعتقدات الخالصة الكائنة في أعماق القلوب، ولكن لنا اليقين بأن الاستيلاء يكون مع طول المدة ويكفي لنجاحنا أن يشاهد الأهالي، كيف يحيى رهباننا وأساتذتنا النصارى حياة فاضلة، يكون ذلك برهانا ساطعا على عمل المسيحيين الخيري الذي أتت به فرنسا.

(..) ولا شك أن للمارشال ليوطي دراية دقيقة بشؤون المغرب، بحيث يتمكن معها من معرفة الأسلوب الذي يتوصل به إلى الاستيلاء على منطقة البربر من تلك البلاد.

فإعطاء هؤلاء كيانا خاصا بهم لا يخرجهم عن دائرة الإيالة الشريفة، ولكنه يضمن لهم استقلالا داخليا نتمكن به من حسم مادة العداء الذي كان قائما بين البرابرة والعرب، وإلحاقهم جميعا بحكم فرنسا.

وخلاصة القول فإن عزم المارشال على تأسيس كنيسة جامعة في مدينة رباط الفتح، على رأسها أسقف كاثوليكي فرانسسكاني، يعينه رهبان من طريقته في عمله وتنشيطه لمدارس الرهبان، كل ذلك يشعر بأنه يقدر نفوذ أولئك الرهبان العظيم حق قدره، ذلك النفوذ الذي سيظهر أثره في المسلمين، خصوصا في اليوم الذي يتمكن فيه الرهبان من جعل المسلمين يقبلون روح الحضارة الفرنسية أعني المسيحيين" مغرب الغد لمارتي نقله بوعياد في "الظهير البربري" ص:224.

وسعيا لتحقيق ذلك بطريقة دبلوماسية قلد "ليوطي" رئيس المجلس العلمي وشيخ الجماعة بفاس أحمد بن الجيلالي، وسام الشرف، وهو وسام للرقبة المنتهي بصليب، نكاية به وبما يمثله من شريعة بطريقة لبقة في منتهى السوء، حيث علق صليبا على رقبة كبير العلماء، في سابقة لا مثيل لها في التاريخ الإسلامي.

تلك هي التوجهات المدنية، والإصلاحات التحسينية التي تريد الحماية إدخالها في المغرب تحت مسمى التهدئة، وخدمة السلطان، وإخضاع السياب لسلطته، هذا المصطلح الذي أحدثته البعثة العلمية في إطار ضرب السلطان بالسكان والسكان فيما بينهم، جاء في التهنئة التي أرسلها "ليوطي" إلى السلطان في 13 يوليو 1913م بعد استيلاء قواته على تارودانت، والواردة عليه من وزير الخارجية الفرنسية، بهذه العبارة: "أرجوك أن تقدم لجلالة الحضرة الشريفة خالص تهاني حكومة جمهورية دولة فرنسا، على الانتصارات الكبرى التي حصلت لها بالمغرب الجنوبي، وتكون حكومة الجمهورية شاكرة لجلالة السلطان، إذا ما تفضل وبلغ الجنود المخزنية ثناءها عليهم، لما قاموا به من الأعمال الحربية الكبرى المبلغة لنا من قبلكم" الجريدة الرسمية ع:6- 13/ 07/ 1913م.

وفي برقية أخرى له قال: "وصلت اليوم (17/ 04/ 1914م) إلى تازة في مقدمة جنود الجنرال "كورو" والجنرال "بومكرتن" التي كانت قدمت لملاقاتي في 16 من الجاري إلى مكناسة التحتانية، والبقع التي اجتزت فيها من تراب التسول، والبرانس، أظهر سكانها خطة مستقيمة. أما في تازة فالأهالي سكان المدينة الذين عجلوا في العاشر من الجاري، بفتح أبواب المدينة للجنرال "بومكرتن" وجيوشه استقبلوني بكل ترحاب، ودفعوا لي عقد البيعة لجلالتكم، الذي سأعجل بإرساله إليكم، وقد كانت صلاة الجمعة باسم

جلالتكم، وقبيلة هوارة التي قدمت الطاعة منذ أقل من عام، حاربت بكل إخلاص وشجاعة، تحت أوامر الجنرال "بومكرتن"، وساعدت مساعدة كبرى على دخول تازة، ولعل جلالتكم تعتبر من المناسب أن تبعث كتب تهاني، إلى القايد أحمد ولد علي قايد هوارة، ولسائر القبيلة أيضا.

وقد عينت مؤقتا عاملا على مدينة تازة القايد الحسن ولد الحاج المدني من غياتة، وللمذكور نفوذ كبير بذله في جناب مصلحة المخزن، وعينت قاضيا الحاج محمد بن علي من هوارة، وأستميح من جلالتكم تثبيت هذا بظهير شريف..

وفي جواب السلطان غير الموقع باسمه، جاء ما يلي: ".. ونتمنى من صميم الفؤاد، شفاء الجرحى، وقد فرحنا غاية بعدم خطارة الحادث الذي أصيب به الجنرال "كورو" وسلامته، ونكلفك إلى أن تصل كتبنا إلى القايد أحمد ولد علي قايد هوارة وقبيلته، بالثناء عليه وعلى قبيلته..، وأن تلح عليهم بأمر المخزن لاستعمال جميع ما لهم من النفوذ لحفظ الهدنة واستمالة القبائل المترددة بالطاعة على الدخول في ما ذهبت فيه الجماعة..

من خلال البرقيتين يتبين مقدار التدخل المباشر في اختصاصات السلطان وجعله رهن إشارة ما يريده المقيم العام، إضافة إلى ما يعتبر في أحسن الأحوال تدليسا وسخرية من الأمة المغربية، عندما ينشر البرنامج الذي وضعه

المشير "ليوطي" أمام رجال الحل والعقد أثناء إقامته بالبلاد الفرنسوية والمؤسس على قاعدتين اثنتين كما تقول جريدة السعادة:

سلمية وحربية، وإن شئت حصرهما في كلمتين هما: "طوعا" وإلا "كرها"، ينفذ الأولى مكاتب الاستعلامات بمساعدة ذوي المكانة والوجاهة من المخلصين في خدمة المخزن، والقائم بأعباء الثانية الجنود الفرانسوية..، فتبدأ مكاتب الاستعلامات بالمخابرة مع القبائل وذلك بمراسلة كبرائها وزعمائها وذوي النفوذ بها، للالتفاف حول الراية اليوسفية -مع العلم أن راية الجنود الفرنسيين هو العلم الفرنسي- ويبينون لهم الفوائد الجمة، وتحذرهم من مغبة الشغب المفضي إلى إتلاف بقيتهم الباقية، وما ينجر مع ذلك كله من غضب الرب، الذي أمرنا بالانقياد لأولي أمورنا، فإن ارعووا بعد هذا الإنذار فذاك، وإلا فإن القوات العسكرية يزحفون عليهم ويعاقبونهم العقاب الصارم.. -ويعتبر ذلك في نظر كاتبه- حماية للدين وسلاح مولانا أمير المؤمنين المجرد لقمع الفتن وقطع دابر المفسدين" السعادة جريدة 24/ 05/ 1922م ع:2377.

ترى عن أي دين تتكلم الحماية؟ وعن أية راية ترفعها جيوشها؟ وعن أية رفاهية تسوقها تلك الجيوش؟ وماذا بقي للسلطان من سيادة بعدما أصبح قائد الجيوش الفرنسية يعين العمال والقضاة، ويأمر السلطان بتثبيت ذلك؟

يقول "برنار أوكوستين" وهو من الباحثين الذين وظفوا أقلامهم لخدمة استعمار المغرب والتوسع الفرنسي به، والذي كلف باستطلاع ما يجب عمله به، فزاره بين 30 مارس و30 ماي 1904م وكتب تقريرا قال فيه:

"كانت الغاية الأساسية من بعثتي دراسة التغلغل الأوربي وأشغاله بالشواطئ الأطلسية بالمغرب، وأوصى سنة 1911م بأن السياسة المخزنية لو طبقت بشكل ضيق، دون سواها من شأنها أن تؤدي إلى الجمود المطلق، أو إلى التدويل على أبعد تقدير، وعندئذ يحصل ما هو حاصل بتركيا، فيطلق العنان لحيل الدبلوماسيين لتصطدم التأثيرات المتنافسة بعضها ببعض، وإن سياسة القبائل لو غض الطرف عن المخزن من شأنها أن تؤدي إلى تفكيك المغرب، مما يقضي على مصالحنا، واجباتنا بأن نتجنبه جهد المستطاع، فلا مناص من مزج السياستين باعتماد الشعار الذي وضعته منذ زمان، والرامي إلى ممارسة سياسة القبائل باسم المخزن ولحسابه، وتلك هي سياسة التهدئة، حيث يمزج السياسة بالعنف، قائلا: "لا وجود لمغرب نافع، فإن الرومان اندثروا من إفريقيا الشمالية بسبب انشغالهم بالمناطق الخصبة دون سواها" إبراهيم بوطالب "المعلمة" 6/ 1931.

وهي السياسة التي حاول "ليوطي" تطبيقها إلى أن تم عزله، مع العلم أن هاته السياسة غاب عنها عنصرين أساسيين هما الدين والشرعية، وهو ما لم تهتم به حتى البعثة العلمية التي أسست من أجل تفادي الأخطاء التي وقعت

فيها فرنسا بالجزائر، كما قال "ميشو بيلير" المعلمة 4/ 1284. والتي أرادت إعادة صياغة التنظيمات بالمغرب، وحياة سكانه، إلا أن ذلك لم يتحقق كما كان يراد له، بدليل قول القبطان "أدينو" وهو من كبار ضباط الاستعلامات المنوه بها سلفا، قال: "الفقهاء متعصبون، شديدو بغضهم للأجانب.. والفقيه مقبولة أراؤه في القبيلة، دون أن يبحث فيها، أو يناظر، هو يتلقى دروسه بإحدى المدن، ولكن غالبا ما يذهب لقضاء سنين من عمره بزاوية في الجبل بالريف أو الأطلس، وهناك يعتنق مسلك التصوف، ويتعاطى السحر، ويتلقى دروس القرآن من أساتذة أشداء، يامرون بالجهاد، ويحضون على بغض الكفار.

ويوم من الأيام يغادر المحل، وكل حمله جراب صغير من ثوب، وسبحة ودفتر، مع كتاب القواعد السحرية، وكثير من العقاقير الغريبة الصالحة للتطبيب..، منافقون، خداعون، زنديقون، محتالون، وذو خطر.. ما هم أولئك الفقهاء؟" "محور السياستين" مصدر سابق ص:60-61.

فهل من أجل هذا قال "ليوطي" بأنه لن يرتاح إلا إذا قضى على البيت المظلم الذي هو القرويين وعلى مرتاديه من أصحاب الجلابيب والبرانيس من السهول والجبال؟

إنها فكرة أعاد ترديدها نقيب المحامين بالرباط سنة 1934م بمناسبة تكليفه للدفاع عن الشابين حصار ومعنينو اللذين قادا مظاهرة بسلا ضد بيع

الخمور فيها، قال النقيب للباشا في المحكمة: "إن الشاب معنينو درس بكلية القرويين، والكل يعرف أن هذه الكلية العتيقة لا يوجد بها كوات للهواء ولا تدخلها الشمس وهذا يؤثر على عقول الطلبة فيصدر منهم هذا التصرف الطائش وهم معذورون، فقام حصار المتهم الآخر وخاطب الباشا الصبيحي: "اسمع سيدي إن القرويين التي درست بها لا تخرج إلا قليلي الفهم، موثوري العقل، يعني أن سعادتك مثل معنينو حسب هذا المحامي الغريب" الحاج أحمد معنينو "ذكريات ومذكرات" 2/ 22.

فمثل هذه الفهوم السقيمة، والتجاوزات المترتبة عليها، تعطي دلالة واضحة على النوايا الحقيقية التي حركت الحماية ومتنفذيها، الذين أصدروا القوانين، ونظموا التنظيمات، وسيروا العساكر، واستولوا على الأراضي الجيدة، ودفعوا السكان إلى الجبال، وقسموهم فئتين طائعة وسائبة، لا يمكن أن تحترم العهود والمواثيق، وهي التي أدت إلى تنازل السلطان على العرش احتجاجا عليها، وإلى إعادة الشرعية إلى أصحابها، وهو ما جعل المولى يوسف ينحو المنحى نفسه باعتراضه على أكثر من ظهير، وتعريض حياته للخطر إلى أن قتل مسموما كما قيل.

يقول "لويس باريطو" في كتابه "ليوطي والمغرب" ص:65: "إننا لا نعدو الصواب إذا قلنا أن السلطان لم يكن متحدا معنا قلبا وقالبا"، والسبب يشرحه "هاردي" في كتابه "نهضة المغرب" ص:6، قال: "قلما رأينا شعبا في

تاريخ العالم بقي كالشعب المغربي، محافظا على وجوده، رغم الحوادث التي مر بها، وظل متحدا في صفاته، مرتبطا بعاداته وأنظمته التقليدية، غيورا على حريته الصحيحة". وعليه يكون ظهور كتاب "إظهار الحقيقة" في موضوع مهم يتعلق بالعقيدة، ويدعو إلى التمسك بالدين، وفق أصوله المبينة في الكتاب والسنة، وتجتمع عليه شبيبة مختلفة المشارب، ويحميه السلطان، درسا وإن رصدته الحماية، إلا أنها لم تستفد منه حتى اتسع إشعاعه، وظهرت آثاره في المجتمع، كما سنرى لاحقا.

فما هي مضامين هذا الكتاب؟ ومن صاحبه؟ وما ممهدات إظهاره، ونتائج ذلك؟

صاحب الإظهار يعرف بنفسه

كتب صاحب "الإظهار" يعرف بنفسه في كتاب لمحمد بن العباس القباج معنون بـ"الأدب العربي في المغرب الأقصى" صادر سنة 1929م بالرباط، يقول: "حقا إن هذه الحياة لا تزال فتية لم تبلغ مداها، ولا تزال ضاحكة مستبشرة ممتلئة بالآمال، فإن أعطيت اليوم عنها صورة فإنما أصور جزء ضئيلا من حياتي الفتية، التي لم يجد بعد عهد خصبها وإنتاجها لما أرجوه لنفسي، وكما تفرضه علي بلادي العزيزة، فأنا أؤمل أن أجد في الحياة المقبلة مجالا فسيحا للخدمة الوطنية، والعظمة الذهنية إن شاء الله تعالى.

في البيت

قرأت في دفتر مواليد العائلة، أن ولادتي كانت في ضحى يوم الأربعاء 24 شوال سنة 1323هـ، وقد نشأت في وسط معروف بالتدين والفضيلة ومحبة العلم، مشبع بروح الاعتدال، وربما كانت في هذه النشأة كثير من عناصر التربية القويمة، كانت الحرية حقا من حقوقي المحفوظة، فلم أكد أشعر في يوم من الأيام أنني أسير في غير وعي مني، أو على غير إرادة شخصية، وإنما كان صوت الضمير هو رائدي الوحيد في طفولتي كلها داخل البيت وخارجه،

وكان المجد العائلي والذكرى التاريخية إنما يذكران أمامي في صيغة تشعرني دائما بوجوب احتذاء مسالك الأجداد السالفين، لا بالفخر المجرد، ولا بالإعجاب المطلق..

في المدرسة

في المدرسة حفظت القرآن الكريم وسائر المتون العلمية الإسلامية مع دراستها دراسة إجمالية، ولقد كان من حسن الصدف أن أكثرية الأساتذة الكرام الذين تلقيت عنهم التعليم الأولي، لا تمثل الجمود ولا تظهر بمظهر التعصب، وإنما كانت معتدلة الأفكار، لينة الجانب إلى حد كبير، فكان هذا معينا لي أن أنشأ نشأة لا جمود فيها ولا جحود، وإنما هي نشأة متبصرة في الأمور، تناصر الحقائق أينما كانت، وتحارب الأوهام أيا كانت.

في المعهد

انتقلت من المدرسة إلى المعاهد الدينية لدراسة علوم اللغة والشريعة دراسة تفصيلية، فقضيت فيها نحو الخمس سنين، تمتد فيها الدراسة والمطالعة من طلوع الفجر إلى منتصف الليل، وكان من سعادتي أن أتصل بخيرة الأساتذة في البلد، ومضرب الأمثال في الاستقلال العلمي والمشاركة التامة، وأدركت أن العالم لا يكون عالما إلا إذا كان مواليا لسائر فروع المعرفة قديمها وحديثها، يأخذ بخيرها وينتفع بثمرها، فلا يكون عدوا للعلم ولا خصما

للمعرفة، وأدركت أن العالم لا يستطيع أن ينفع الناس بعلمه إلا إذا كان منطقي العقل، متسلسل الفكرة، حسن الترتيب، يجعل أجزاء الموضوع الواحد سلسلة يأخذ بعضها برقاب بعض، وأدركت أن الخصلة الأولى والأخيرة لحملة العلم وورثة النبوة، هي أن يكونوا صرحاء بالحقيقة، مجاهرين بالحق، مهتمين بأمور الدين والوطن، محافظين على كرامة العلم وعزة الدين.

حياتي المشتركة: تصنيف وتدريس

بينما كنت في الوطن كطالب يتلقى الدروس، ويكتب المذكرات، كنت كأستاذ يتلقى العلم ويشتغل بالتأليف، فقرأت مع فريق من زملائي في دروس عامة بعض مصنفات اللغة والشريعة، وألفت بعض المؤلفات لم يطبع منها إلا مؤلف صغير صدر منشورا باسم "إظهار الحقيقة"، فعلقت عليه الصحف والمجلات ما بين مصرية وتونسية وجزائرية ومغربية، وقامت حوله ردود ومعارضات كانت لها ضجة في المجتمع المغربي من أقصاه إلى أقصاه.

شعر وكتابة

كانت الروح الأدبية تدفعني لنوع خاص من الشعر والكتابة، هو هذا الشعر الوطني الذي كان يرضي الجمهور المتنور، وهذه الكتابة الإصلاحية التي كانت تقابل بالنقد تارة وبالتحبيذ أخرى.

وإني لأذكر بالسرور والرضا ذلك الحديث الذي جرى بيني وبين فريق من زملائي، شعراء الشباب عندما سألتهم: هل حسن أن أمضي في معالجة الشعر أم أنصرف عنه؟ فقالوا في لهجة مخلصة لا رياء فيها ولا نفاق: كأنك لم تخلق لأن تكون شاعرا، ولعل استعدادك للعلم أقرب من استعدادك للشعر، ولعل البلاد ستنتفع بك كعالم دون أن تستفيد منك كشاعر.

لقد كانوا يستحسنون من شعري هذا النوع الذي يدور حول فكرة الوطنية ومبدأ الإصلاح الديني، ولكن استحسانهم لم يمنع أن يكون لهذا الحديث أثر كبير في نفسي، فلم أرحل إلى مصر حتى تركت الشعر جانبا بسائر ضروبه، وانصرفت إلى الدراسة العلمية المستطاعة أقضي فيها الليل والنهار، وصرت أواجه الحقيقة وجها لوجه، وأنظر إلى الحياة نظرة واقعية.

فأنا لا أستطيع بعد اليوم أن أعد نفسي كشاعر من الشعراء، وإن كنت لا أغمط نفسي ما لها من حق في تذوق الشعر والإحساس بالشاعرية، وإذا كانت الأمم في مفتتح نهضتها تعنى بالأدب ورجاله، فإنها عندما تريد أن تستوي على سوقها وتسد حاجاتها الحيوية ويعترف بمكانها تحت الشمس كأمة في هذا العالم، إلا إذا وجهت كل ما لها من تضحيات وجهود نحو العلم الحي، الذي يبث الحياة ويمد الأحياء، فهنيئا لأمة لها أدبها ولها علمها، وهنيئا لأمة يسيطر عليها العلم، ويخلد فيها الأدب. ص:70-82 بتصرف.

مما تقدم من ترجمته يتضح أن صاحب الإظهار لديه مشروع يريد تحقيقه مع مجايليه وأساتذته، لخصه في: الوطنية والإصلاح الديني، فمن أين أتى بذلك، وهو الشاب الذي لم يبلغ العشرين بعد، زمن كتابة الإظهار، الذي لم يحتفى بتأليف مماثل له قديما أو حديثا، سواء على مستوى سن المؤلف، أو موضوع التأليف.

تعريف بالكتاب

يعتبر هذا الكتاب ظاهرة كان له ما بعدها، ويكفي القول: بأن مؤلفه وضع تحت حماية السلطان مولاي يوسف بعدما هدد بالقتل كما أخبرني فضيلته، وترجم ذلك بأن خص بالمشاركة في صلاة التراويح بالمسجد الذي كان يصلي به السلطان بالرباط، واعتبر ذلك موافقة ضمنية على ما جاء في الكتاب بل كان ذلك تشجيعا له ولزملائه على القيام بما قاموا به من إنشاء جمعية "أنصار الحقيقة" التي سنتحدث عنها لاحقا.

وإذا كان الكتاب كما سيرى القارئ يتحدث على محاربة البدع المستشرية في المجتمع، وما يدعيه المتصوفة من شركيات بدعاوى باطلة يزعمون التقرب بها إلى الله عز وجل، وما يترتب على ذلك من نبذ أصول الدين والاهتداء بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، مما فسح المجال لأصحاب الأهواء للتمكين لجهالاتهم عن طريق كتب دينية حشيت بالخرافات والأحاديث المفتريات على صاحب الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وسلم، وقصر جل حملة العلم نظرهم عليها كأنها أم الدين، وصار إنكار ما فيها يعد ازدراء بالدين وانتقاصا للشريعة، وتأسس لذلك جمعيات وأحزاب يستوجب تبيان مظاهرها لئلا يلتبس الحق بالباطل والمحلى بالعاطل، خاصة على النابتة الجديدة والناشئة

الحديثة بعدما أصبح الشيوخ خاصة وعامة متمسكين بما هم فيه من ضلالة، إما أنفة واستكبارا أو اعتقادا لما هم عليه حقا بينا، فلم يبق لذلك على الشباب مسؤولية القيام بالواجبات الدينية والوطنية للنهوض بالأمة، وإصلاح ما أفسده الدخلاء الخراصون القناصون من ديننا، والمحافظة على قوميتنا وجنسيتنا، والاهتمام بشأن جامعتنا، والاعتناء بحفظ هيئتنا من التداعي والإقدام لتحقيق رغبة جل الوطنيين في إحياء ما كان لهم من المفاخر والمآثر وإرجاع ما كان لهم من العظمة والجلال، مما حذا بالكاتب إلى الانخراط في سلكهم بل مقدما لهم دليل عملِهم عملُهم، وأداة توحدهم.

إنه الشيخ الكاتب محمد المكي الناصري، الذي ولد سنة 1906م، وتوفي سنة 1994م، وألّف "إظهار الحقيقة" وسنه لا يتجاوز 16 سنة، وكان يتابع دراسته في مدرسة الحياة بالرباط التي أسسها سنة 1924م أخوه محمد بن اليمني الناصري (ت:1971م) والتي تخلف عن إدارتها لأخيه محمد المكي الناصري سنة 1926م.

ممهدات الإظهار وظاهرة الكاتب والأنصار

سبق أن قلت بأن مؤلف الإظهار وناشره وأنصاره من مواليد منتصف العقد الأول من القرن العشرين، وهذا معروف مشهور على مستوى الأقوال والأفعال، وإنما نذكر به توثيقا ليس إلا:

* شاعر الشباب محمد علال الفاسي رحمه الله من مواليد 1326هـ وهو القائل:

أبعد مرور الخمس عشرة ألعب ... وألهو بلذات الحياة وأطرب

ولي أمة منكودة الحظ لم تجد ... سبيلا إلى العيش الذي تتطلب

بلوت بني أمي سنين عديدة ... فألفيت أن النشء للخير أقرب

وقال أيضا:

حض على الدين إن الدين مرتعه ... عظيم عاقبة تنجي من الكرب

نصح ونقد وتهذيب وتربية ... كذلك يفعل أهل المجد والحسب

وقفت ضد ذوي الغايات من نسبوا ... كل السفاسف للإسلام والريب

دعوا التفرنج دوما في عوائدكم ... إن التفرنج قد يدني من العطب

وابغوا التمدين من أبوابه شغفا ... لا تحسبوا نيله بالقول والصخب

ص: 3-7 الأدب د2.

* محمد المهدي الحجوي رحمه الله: ولد سنة 1322هـ، وهو القائل:

جددوا المجد فما هذا الخمول	يا بني المغرب أبناء الفحول
واربطوا الوصلة بالماضي فما	عزّ من كان بماضيه جهول
أوثقوا رابطة الدين ولا	تتقطع بكم فيه السبيل
طهروه من خرافات تُنَا	فِي صحيح الدين والشرع النبيل
إنه ما غير الأديان غيـــ	ـــر خرافات تنافيها الأصول
حاربوا من سن فيكم بدعا	إنها في كاهل الدين فلول
حاربوا من خفروا ذمتكم	وأضاعوا ذلك المجد الأثيل
فرقوا الدين وكانوا شيعا	كل تفريق إلى الحشر يؤول
فلهذا سبحة ينشرها	مرشدا وهي خناق للعقول
ولذا زاوية يدعو لها	ولهذا نغمات وطبول
حاربوهم بسلاح العلم لا	تتقوهم حاربوا كل جهول
وحدوا الدين ففي وحدته	راحة الفكر وأسباب الوصول
واجعلوا العلم أساسا فيه	يدرك المرء المعالي ويصول

ص 16-17 د2 الأدب العربي. مصدر سابق.

* عبد الرحمن حجي رحمه الله: ولد في 15 ذي القعدة 1318هـ، وهو القائل:

أرى أمتي طاشت فهات شعورها — فإن ذوي الأزمان منها الأفضل
رمتها جيوش الجهل ذلا بنبلها — وإن نبال الجهل أقسى وأقتل
أراها وقد دب الذباب بجسمها — يروح ويغدو وهي لا تتململ
توالت عليها نكبة بعد نكبة — فلون نهارها من الليل أكحل
فهل من طبيب يعلمني بضرها — فإن فؤادها من الداء يسهل

ص:134 الأدب العربي، مصدر سابق.

* عبد الله كنون رحمه الله: ولد بفاس عام 1326هـ، وهو القائل:

ثباتي وحزمي واشتهاري بمبدئي — ثلاثتها تكفي لأن أقهر الدهرا
فلا حب إلا للبلاد وأهلها — تخلل أنفاسي وأشربته خمرا
أرى أنني إن لم أعد بسعادة — على أمتي يا حسرتا متُّ مضطرا
إني إذا حققت ما أبتغى لها — كفاني بأن حققته ثم لا فخرا

ص:39 مصدر سابق.

* محمد القري رحمه الله: ولد عام 1317هـ، يقول:

قاتل الله أمة رضيت بالـ — جهل فيها وحببته العبادا
لا عفا الله عن أناس أضلو — نا فزادوا من الإله بعادا
زاد في الطين بلة وفسادا — من على الجهل والضلال تمادى
يظهر الحق للعيان فيبدي — مع بيِّن الدليل منه عنادا

إيه ما أبين الحق للنا س وهم كلهم يرون السدادا

هم بخير في أمورهم ما أقاموا الدين والعلم واستبانوا الرشادا

فـإذا عـمـوا عــن الحـق بـادروا واضــمـــحلـوا ثـنى ثـنى وفرادا

ص:50 مصدر سابق.

* محمد المختار السوسي رحمه الله: ولد سنة 1313هـ، وقد قال:

حتى متى شعبي يعبده الجهل كأن لم يكن قطبَ السيادة من قبل

كأن لم يكن بين الشعوب محكما إذا قال يحني الرأسَ من رأسُه يعلو

كأن لم تسد فينا المصافاة والإخا وكأس اتحاد لم يشب صفوه غلو

كأن لم يكن فينا اقتدار ونظرة مسددة ترمي العقاب فتنحل

أجل إنا كنا وكنا وهكذا يقول لسان العلم من قوله القول

ولكن إذا ألقيت يومك نظرة فكم لوعة تذكو وكم زفرة تعلو

تشاهد ما يرفض قلبك حسرة عليه ويستذري الدموع فتنهل

لتسقط على الأرض السما ولتقم قيامة شعبي فالهلاك ولا الجهل

فقد ضاق بالشعب الجهول خناقه وقد ساء محياه وقد طفح الكيل

فهلاك يريح البال أولى من أن ترى ملايين سبعا لا شعـورا ولا عـقل

ص:65 مصدر سابق

* عبد الكريم سكيرج رحمه الله: ولد في 15 ربيع الأول 1322هـ، مما قال:

ما بال قومي لم ينهض بهم عمل ... والناس كلهم بالعلم قد عملوا
تقاعدوا عن فنون نال غيرهم ... تحصيلها وأرى قومي لها غفلوا
لكن رأيتهم وفي نحورهم ... مسبحة وهم بسرها اشتغلوا
هذا له خلوة وذا بجلوته ... وذا بزاوية أخرى له خول
ما في الزوايا خبايا بينهم وجدت ... بل في الزوايا رزايا عند من عقلوا
تكاثروا في نواحي القطر وانتشرت ... على اختلاف شيوخ عندهم صلوا
من لي بأن تشعروا فتعملوا عملا ... قام الرسول به لعلكم تعلوا
فإن سلكتم على منهاج سنة ... فلا تمشي عليكم في الملا حيل
فلتتركوا ما دهاكم في عقائدكم ... ففي اعتقادكم إن تشعروا خلل
ولتعلموا أن دين الله ثم فلم ... يدع مشرعه للناس ما فعلوا
هيا بنا أهل هذا القطر فاعتبروا ... بمن تأخر عصرهم وقد جهلوا

ص: 92 مصدر سابق.

* والأديب المؤرخ أبو عبد الله السليماني رحمه الله 1280هـ، قال رحمه الله:

حماة الدين هبوا من سبات ... فمركزنا يؤول إلى الخراب
تركنا الدين خلفا لا نبالي ... ولم نترك لنا غير انتساب
يقول الشامتون هم أضاعوا ... كتابهم ويا حسن الكتاب

كتاب جاءنا للحق يدعوا وينذرنا مفاجأة العذاب

أما ترك الرسول لنا وصايا نقود المسلمين إلى الصواب

فطال العهد واخترنا سواها ويا لخيائنا يوم الحساب

بني العلم الرعـاة ألا أفيـقـوا فـإن الشـاة في وسـط الـذئاب

ص:45 مصدر سابق.

* وشاعر الثورة الريفية العلامة أبو بكر أحمد بناني الرباطي رحمه الله 1885م وهذا نشيده:

يا بني المغرب هبوا هبة واضربوا فرنسا ضربة

ذكرها يبقى عليها سبة واسألوا الله انتصار الريفيين

يا بني المغرب موتوا شهداء واسلبوا في الحرب أرواح العدا

مـزقـوا الكـفـر وأشراك الردى واسـألـوا الله انـتـصار الريفيين

ويقول في قصيدة أخرى:

وحسبي من التمدن دين ربي أدين له كراهة أن أضلا

وترقية الصنائع في بلادي وتحصيل العلوم لدي أعلى

وتعليم اللغات لطيف معنى تذود على الورى جهلا وذلا

توصلنا لمقصدنا المرجى وتقدر بينهم أن نستقلا

فـهـذه فكـرتي لا شـك فيـهـا حـواهـا نـضـع ذي أدب تجلا

ص:78 مصدر سابق.

فهؤلاء الشباب، وغيرهم المتحدثون عن جهل الأمة، وحاجتها إلى الإصلاح، في مجالات مختلفة، لا يكتفون بالتشخيص، وإنما يضعون الحلول من أجل النهوض المطلوب، انطلاقا من إصلاح العقيدة، والعودة إلى ينبوع الإسلام، وأساسه المتمثل في الكتاب والسنة، معتبرين ذلك أساسا لرقي الأمة، وتحصينا للوطن، فمن أين أتاهم هذا التكوين؟ وهم الذين شبوا وترعرعوا في زمن عرفت البلاد فيه بداية سقوطها بين براثين الاستعمار، الذي سير جيوشا لاحتلال أطرافها، وبسط سيادته على ربوعها، وشرع في إدارة مباشرة بدعوى تمدينها، ونشر الأمن في ربوعها، وإخضاع متمرديها للسلطة المركزية التي استحوذ عليها، وسخرها لتحقيق أغراضه، في القضاء على معاقل المقاومة المسلحة في مختلف مناطقه.

- جماعة: "معلمة المغرب".

- محمد بن اليمني الناصري: "ضرب نطاق الحصار على أصحاب الانكسار".

- القبطان أدينو: "محور السياستين".

- إبراهيم بوجيدة: "تنبيه الأندزالي".

- الجرائد والمجلات:
  - الاتحاد الاشتراكي.
  - أنوال.
  - منبر الرابطة.
  - لسان المغرب.
  - الجريدة الرسمية.
  - الصحراء.

إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة

ـشيخ محمد المكي الناصري

رحمه الله تعالى

(1324هـ - 1414هـ)

(1906م-1994م)

تخريج وتحقيق

ـحمد برعيش الصفريوي

اظهار الحقيقة وعلاج الخليقة

[لمؤلفه الضعيف [أبي عبد الله المسكي]

(تلميذ بمدرسة الحياة)

طبع على نفقة [محمد بن العباس القباج]

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى
عام
١٣٤٣ - ١٩٢٥

عن النسخة
فرنكان

طبع بمطبعة «النهضة» نهج الجزيرة عدد ١٢ تونس

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن لكل أمة تاريخا ولكل تاريخ رجال وإن من رجالات تاريخ مغربنا الحبيب الأستاذ الكبير والشيخ النحرير والأديب المحنك والشاعر المفتق والمجاهد المثابر والمربي الصابر محمد المكي الناصري رحمه الله تعالى..

وُجد الشيخ في وقت تكالب فيه العدو الفرنسي المحتل على بلد المغرب لنهب خيراته وإفساد هوية أهله بشتى وسائل الحرب المدمرة، فما كان من الشيخ رحمه الله إلا أن جرد نفسه وقرع ساقه وشحذ قلمه على بكور سنه للدفاع عن العقيدة الإسلامية والثوابت الدينية من مسخ هذا المحتل الغاشم الذي وظف لذلك بعض ضعاف العقول والأنفس والدين، ولا زلنا إلى اليوم نتخبط في رواسب ومخلفات هذا المحتل.

وفي غضون ذلك ظهر للشيخ رحمه الله كتاب يعالج فيه ما لحق الدين من البدع والخرافات، وهو هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم والذي

"إن سبل خدمة الوطن عديدة وإن أهمها إعلان الحقيقة في كل بلد وفي كل زمان"

خطيب مصر المرحوم، مصطفى كامل[1]

هي الحقيقة أرضاها وإن غضبوا	**وأدعيهـا وإن صاحوا وإن جلبوا**
أقولها غير هياب وإن حنقـوا	**وإن أهانوا وإن سـبوا وإن ثلبوا**
ولست أول من أبدى نصيحتـه	**لقومه لقومه فأتاه منهم العطب**

شاعر العراق وفيلسوفه الكبير جميل صدقي الزهاوي[2]

[1] – مصطفى كامل: ولد في 1 رجب 1291 هـ الموافق 14 غشت 1874م، ظهر أول كتاب سياسي له بعنوان "كتاب المسألة الشرقية"، وهو من الكتب الهامة في تاريخ السياسة المصرية، أصدر جريدة اللواء اليومية. توفي في 6 محرم 1326 هـ الموافق 10 فبراير 1908 عن عمر يناهز 34 عاما.

[2] – جميل صدقي الزهاوي: ولد في بغداد يوم الأربعاء 29 ذي الحجة عام 1279 هـ، الموافق 18 يونيو عام 1863م. وبها نشأ ودرس.

وهو من دعاة تحرير المرأة الذين باؤوا بإثم سفورها في العالم الإسلامي، وهو الذي طالب في شعره المرأة بترك الحجاب وأسرف في ذلك، حيث قال:

اسفري فالحجاب يا ابنـة فهر	هو داء في الاجتـماع وخيـم
كل شيء إلى التجدد مـــاض	فلمـاذا يـقر هـذا القـديم؟
اسفري فالسفور للنـاس صبح	زاهر والحجاب ليل بهيـم

توفي الزهاوي في شهر ذي القعدة عام 1354 هـ، 1936م.

كلمة الناشر

لبيك أيتها النهضة العلمية، والحركة الأدبية، فأنت رائدنا الوحيد، إلى توحيد أهل التوحيد، وأنت النور الذي يضيء لنا معالم الحقيقة ويهدينا سواء السبيل، وأنت الروح التي تملأ أشعتها منافذ الأجسام الميتة والنفوس المنحطة بالحياة العالية. وأنت مشكاة اليقين الذي نمشي به في الناس شامخي الأنف، رافعي الرأس. وأنت الجمال الذي نكون به خير أمة أخرجت للناس.

أيتها النهضة العلمية، إننا ببركتك السارية في جزئياتنا وكلياتنا لم نعد من أهل الأقوال، العاجزين عن الأعمال.

فإظهارا لهذه الفضيلة من حيز القوة إلى حيز الفعل قمنا الآن بنشر هذه العجالة النافعة التي جاد بها بنان واسطة سلك شبيبتنا الرباطية، سليل المجد والعلم والعمل والسنة، الشاب الذي بلغ مبلغ شيوخ الفضل في صباه، الحسيب النسيب الأصيل أبو عبد الله سيدي محمد المكي بن اليمني الناصري الجعفري الزينبي حفظه الله، وتشجيعا له وترغيبا لأمثاله في الطبع على غراره والسير على مثاله، وإعلانا للذكاء الفطري النادر المغروز في غرائز المغربي.

وإرشادا لأولئك الطغام الذين غشت غشاوة الجهل بحقيقة الدين بصائرهم وأبصارهم، حتى ينجلي الصبح لذي عينين، ويتضح اللجين من اللجين، ويتبين الحق من الباطل، والحابل من النابل، والله يتولى هدانا وهداهم بمنه آمين.

تحريرا في 24 ربيع النبوي الأنور سنة 1343

محمد بن العباس القباج[1]

[1] - محمد بن العباس القباج الرباطي: من الأدباء الأول الذين حملوا لواء الأدب في المغرب فكان لهم القلم الناقد في ميدان الشعر، له كتاب في الأدب بعنوان: "الأدب العربي في المغرب الأقصى"، وكان رحمه الله عضوا في "الرابطة المغربية" وهي التي كلفته بنشرها على حسابها الخاص باسمه، دون إعلان عن اسمها، لأنها كانت هيأة سرية فكان ذلك تضحية كبرى من جانبه رحمه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي جعل الدين الإسلامي خير الأديان، وأمرنا باتباعه في سائر الأحوال من سر وإعلان، وذم من خرج عن سبيله القيم وحاد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل بني آدم وأشرف بني عدنان، وعلى آله وأصحابه الذين أعزوه أيّ إعزاز وأحسنوا اتباعه أي إحسان، صلاة وسلاما دائمين إلى يوم التناد.

[أما بعد] فإنه في هذا العصر الزاهر، الذي اهتمت الأمم فيه بإحياء ما كان لها من المفاخر والمآثر، قد اتسعت مدارك شبان المسلمين وتفتحت بينهم أزهار العلوم، وانقشع ما غشى أعينهم من كثيف السحب ومتلبد الغيوم، التي طالما حالت بينهم وبين ولوج أبواب العلوم والعرفان، وأوقعتهم في مهاوي الهلاك والخسران. فكثر التباحث والتفاوض بينهم في أسباب الترقي إلى ذروة الكمال، وإرجاع ما كان لهم من العز والعظمة والجلال، إلى أن وقفوا على الغاية المقصودة، والضالة المنشودة، فعلموا أن السبب الوحيد في ذلك، والوسيلة الموصلة إلى بلوغ ما هنالك، هو اتباع الكتاب العزيز واقتفاء المشرع الأعظم، وعدم العدول عما أتى به صلى الله

عليه وسلم. فسارعوا إلى القيام بهذا الأمر العظيم، وحملوا الناس على اتباع السنة، والخروج عما هم فيه من مورد البدع الوخيم، وغدا كل واحد منهم ينشر دعوته بين مواطنيه ويفيدهم ما عنده في هذا الموضوع من المعلومات، ويبين لهم أحسن الوسائل لمقاومة البدع وأسهل الطرقات، رغبة في الترقي إلى ذروة المجد والشرف والعروج في معارج الرقي والمكرمات، حتى لم يبق إشكال لدى جل الوطنيين في أن الحق هو ما هم عليه، والصراط المستقيم هو ما يدعون إليه، فاتفقت آراؤهم على ذلك المبدأ الحميد، وسلكوه غير ملتفتين إلى من خالفهم من كل متعصب جامد وجاهل وبليد. فلما رأيت ذلك منهم حملتني الغيرة الدينية على أن أنخرط في سلكهم وأعينهم (وإن لم أكن أهلا للإعانة) بتقييد موجز مفيد. فشرعت في ذلك، مستعينا بالله تعالى على سلوك تلك المسالك، ملخصا له من بعض مقالات نصراء الإسلام وحماة الدين كالأستاذ الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده[1] مفتي الديار المصرية في وقته - والشيخ محمد بدر الدين النعساني[2] - ومؤسس جريدة

---

[1] هو محمد عبده بن حسن التركماني توفي 1323هـ بالإسكندرية، ينتمي فكريا إلى التيار العقلاني، وهو من دعاة التقريب بين الأديان، له عدة أفكار انتقد بسببها. (انظر كتاب "تاريخ الأستاذ الإمام" لرشيد رضا 1/ 817-829، وكتاب "الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان" ص:20)..

[2] هو محمد بن مصطفى بدر الدين بن محمود الحامد من النوابغ، ولد سنة 1315هـ الموافق 1897م بحماة في سورية، وبها تعلم وتخرج بدار المعلمين في دمشق، ودرس الأدب في مدارس الحكومة، وعين مفتشا للمعارف في حماة، ثم مديرا للمعارف بها، شارك في الحركات الوطنية بشعره، ونشر

الأستاذ ومحررها المرحوم الشيخ عبد الله النديم الإدريسي الحسني[1] - ومؤسس مجلة المنار ومحررها الشيخ محمد رشيد رضا[2] أطال الله بقاءه، وأدام في معارج الإصلاح ارتقاءه، وغيرهم من كتاب العصر المصريين والتونسيين أعانهم الله، ووفقنا وإياهم لما فيه رضاه، مازجا ذلك بما اقتطفته القريحة الجامدة، وسمحت به الفكرة الكاسدة مسميا لهذا التقييد (إظهار الحقيقة، وعلاج الخليقة) والله المستعان، وعليه التكلان.

ديوانه الأول "النواعير"، وديوانه الكبير بعده، واضطهده الفرنسيون وسجنوه، توفي بحماه سنة 1381هـ الموافق 1961م رحمه الله تعالى.

[1] هو عبد الله النديم الإدريسي الحسني، أو عبد الله بن مصباح بن إبراهيم، من تلامذة محمد عبده، ينتمي فكريا إلى تيار الجامعة الإسلامية الذي أسسه جمال الدين الأفغاني رحمه الله فقد كان تلميذا نجيبا له ولفكره وآراءه، ولد بالإسكندرية وكان شاعرا وخطيبا وسياسيا مجاهدا ذا قدم راسخة في ميادين العلوم الإسلامية وعلوم العربية الفصحى، وكاتبا بارزا باللهجة العامية، شارك في الكتابة في صحافة تيار الإحياء والتجديد الذي تزعمه الأفغاني، فكتب في صحف "المحروسة" و"العصر الجديد".

[2] هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين القلموني، البغدادي الأصل الحسيني النسب، صاحب مجلة المنار، وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكتاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، ولد ونشأ في القلمون من أعمال طرابلس في الشام..، وهو من تلامذة محمد عبده، وخليفته من بعده.

تقسيم المحدثات وما يتعلق بها

اعلم أن ما حدث بعد النبي صلى الله عليه وسلم ينقسم إلى قسمين: قسم تقتضيه أصول الدين وتتناوله أدلة الشرع الكريم وهذا من الدين قطعا. وقسم لا تقتضيه أصول الدين ولا تتناوله أدلة الشرع وهذا هو المسمى بالبدعة والضلالة وهو المردود على صاحبه لقيام البرهان على منعه من الكتاب والسنة.

فأما من الكتاب فقوله تعالى: "اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء" الأعراف3، "وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ" آل عمران103، " وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ" الأنعام153، "وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً" النساء115، "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا" الحشر7، "وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ"[1] آل عمران105-106، "إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ

---

[1] جعل المؤلف رحمه الله تعالى هذه الآية فيما يدل على ذم الابتداع إشارة إلى ما ورد في تفسيرها عن ابن عباس أنه قال: "فأما الذين ابيضت وجوههم فأهل السنة والجماعة وأولوا العلم، وأما الذين اسودت وجوههم فأهل البدع والضلال" وهو أثر ضعيف رواه الآجري في الشريعة(5/ 291)، واللالكائي (1/ 129)، والسهمي في "تاريخ جرجان" (ص132).

وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ" الأنعام159، "قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" آل عمران31، هذا بعض من الآيات الكثيرة الدالة على وجوب موافقة الشرع ومتابعته، ومنع الخروج عن قويم منهجه والزيادة في سننه.

وأما من السنة فقوله صلى الله عليه وسلم: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"[1]، "اتبعوا ولا تبتدعوا فإنما هلك من كان قبلكم بما ابتدعوا في دينهم وتركوا سنن أنبيائهم وقالوا بآرائهم فضلوا وأضلوا"[2]، "إن أحببت ألاّ توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة، فلا تحدث في دين الله حدثا برأيك"[3]، "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به"[4]، "من أخذ بسنتي فهو مني، ومن رغب عن سنتي فليس مني"[5]، "من أحيا سنة من سنني قد أميتت بعدي، فإن له

---

[1] أخرجه مسلم وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها.

[2] لم أقف عليه مرفوعا وروي بمعناه عن ابن مسعود موقوفا عليه، أخرجه وكيع في الزهد (ص357)، والدارمي في سننه (1/ 80)، والمروزي في السنة (ص28)، والطبراني في الكبير (9/ 154) وغيرهم.

[3] هو طرف من حديث طويل، أخرجه أبو الفرج بن المسلمة في مجلس من أماليه كما في الضعيفة (1/ 430)، وأبو نصر السجزي في الإبانة كما في التذكرة للقرطبي (ص390)، والخطيب (4/ 480)، وابن الجوزي في الموضوعات (1/ 264) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو موضوع، وله طريق أخرى فيها ضعف.

[4] أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (ص:21)، ومن طريقه الأصبهاني في الحجة (1/ 269)، والحسن بن سفيان في الأربعين (ص13) وغيرهم من حديث عبد الله بن عمرو، وصححه النووي في الأربعين، وأقره ابن حجر في الفتح وهو ضعيف، وفيه اضطراب، وقد يكون فيه انقطاع، ينظر كلام ابن رجب عليه في جامع العلوم والحكم (ص:386-388)، لكن معناه صحيح.

[5] أخرجه أبو جعفر بن البختري في جزء من أماليه كما في الضعيفة (10/ 43)، ومن طريق الخطيب البغدادي في "الفقيه والمتفقه" (1/ 209)، وعبد الغني المقدسي في السنن كما في الضعيفة

من الأجر مثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا ترضي الله ورسوله، كان عليه مثل وزر من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئا"[1]، "من أتى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام"[2]، "أصحاب البدع كلاب النار"[3]، "ليس منا من عمل بسنة غيرنا"[4]، "ستة ألعنهم لعنهم الله وكل نبي مجاب، الزائد في دين الله، والمكذب بقدر الله، والمتسلط بالجبروت يذل به من أعز الله ويعز به من أذل الله، والتارك لسنتي، والمستحل لحرم الله، والمستحل من عترتي ما حرّم الله"[5]، "سيكون في أمتي دجالون كذابون يأتونكم ببدع من الحديث لم تسمعوه أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم لا يفتنونكم"[6]، "فليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال

(10/ 43)، وابن الجوزي في العلل (1/ 44)، وابن عساكر في تاريخه (18/ 127) من حديث عبد الله بن عمر، وإسناده ضعيف جدا.

[1] أخرجه الترمذي (5/ 45) وحسنه، وابن ماجه (1/ 76) من حديث عمرو بن عوف المزني، وهو صحيح لغيره.

[2] روي مرفوعا وموقوفا ومقطوعا، وهو صحيح من قول الأوزاعي.

[3] أخرجه أبو حاتم الخزاعي في جزء من حديث كما في "كنز العمال" (1/ 221)، ومن طريقه الرافعي في "أخبار قزوين" (1/ 317)، وابن البناء في "الرد على المبتدعة" كما في الضعيفة (6/ 309)، من حديث أبي أمامة مرفوعا وهو ضعيف، والأصح هو "الخوارج كلاب النار".

[4] هو طرف من حديث أخرجه الطبراني في الكبير (11/ 152) من حديث ابن عباس مرفوعا، وإسناده ضعيف.

[5] روي من حديث عائشة ومن حديث علي ومن حديث عمرو بن سعواء مرفوعا، وكلها ضعيفة.

[6] أخرجه أحمد (2/ 349) وابن وضاح في البدع (1/ 17)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا، وإسناده ضعيف، وله شاهد في صحيح مسلم (1/ 9) من حديث مسلم بن يسار عن أبي هريرة.

أناديهم: ألا هلّم، ألا هلّم، فيقال: أنهم قد بدلوا بعدك، فأقول: فسحقا فسحقا"[1]، "من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد"[2]، وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم متى أكون مؤمنا؟ فقال: إن أحببت الله، فقيل: ومتى أحب الله؟ فقال: إذا أحببت رسوله، قيل ومتى أحب رسوله؟ قال: إذا اتبعت طريقته، واستعملت سنته -الحديث-[3]، وقال صلى الله عليه وسلم: فيما وعظ به أصحابه ورواه عنه العرباض بن سارية: "فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ"[4]، وكان صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته: "أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة"[5]، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة: "إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، هم أصحاب البدع والأهواء من

---

[1] أخرجه مسلم وغيره مطولا والبخاري مختصرا، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] أخرجه ابن عدي في الكامل (2/ 90)، وابن بشران في أماليه (2/ 31)، ومن طريقه البيهقي في الزهد (1/ 221)، وأبو عبد الله الدقاق في "رؤية الله" (ص: 218-306) ضمن مجموع، من حديث ابن عباس مرفوعا، وإسناده ضعيف جدا. وروي من حديث أبي هريرة مرفوعا بلفظ "من تمسك بسنتي عند فساد الناس..". أخرجه البغوي في "الأنوار" (1/ 413)، وهذا موضوع.

[3] لم أقف عليه.

[4] أخرجه أحمد (4/ 126)، وأبو داود (4/ 329)، والترمذي (5/ 44) وابن ماجه (1/ 15)، والحاكم (1/ 174) وغيرهم من حديث العرباض بن سارية وهو حديث صحيح.

[5] أخرجه أحمد (3/ 371) ومسلم (3/ 11)، والنسائي (1/ 550) وغيرهم، من حديث جابر مرفوعا، وهو حديث صحيح.

هذه الأمة"[1]، وقد سأل حذيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: "هل بعد هذا الخير من شر؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، قوم يستنون بغير سنتي ويهتدون بغير هديي، قال: فقلت: هل بعد ذلك الشر من شر؟ قال: نعم، دعاة على نار جهنم من أجابهم قذفوه فيها، فقال يا رسول الله صفهم لنا، قال: نعم، هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، قال: فما تأمرني إن أدركت ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قال فإن لم يكن إمام ولا جماعة، قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك"[2]، وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا حدث في أمتي البدع وشتم أصحابي، فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"[3]، إلى غير ما ذكر من الأحاديث الواردة في رد البدع على مبتدعيها وذمهم والحط من مقامهم، والأخبار الطافحة بالحض على التمسك بالكتاب والسنة والإجماع ونبذ ما خالف

---

[1] هو طرف من حديث أخرجه الحكيم الترمذي وأبو الشيخ وابن مردويه كما في "الدر المنثور" (3/ 402)، ابن أبي حاتم في تفسيره (5/ 1429)، والطبراني في الصغير (1/ 338)، وأبو نعيم في الحلية (4/ 138)، والبيهقي في الشعب (5/ 449)، والأصبهاني في الحجة (1/ 275)، وابن الجوزي في العلل (1/ 144)، من حديث عمر رضي الله عنه، وهو ضعيف.

وأخرجه الطبراني في الأوسط (1/ 207)، وابن جرير في تفسيره (12/ 270)، والحكيم الترمذي والشيرازي في الألقاب وابن مردويه كما في الدر المنثور (3/ 402) من حديث أبي هريرة مرفوعا، وهو ضعيف أيضا.

[2] أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث حذيفة رضي الله عنه.

[3] أخرجه ابن ماجه (1/ 97)، والبخاري في تاريخه (3/ 197)، وغيرهما من حديث جابر رضي الله عنه، وإسناده ضعيف وفيه انقطاع، والمراد بإظهار العلم إظهار السنة كما قال الوليد بن مسلم راوي الحديث.

هذه الأصول من البدع المحدثة في الدين المنافية للشريعة الإسلامية.. إذ الخير كله في الاتباع، والشر كله في الابتداع.

وخير أمور الدين ما كان سنة * وشر الأمور المحدثات البدائع[1]

****

اتبع صراط المصطفى في كل ما * يأتي، وخل وساوس الشيطان

واعلم بأن الحق ما كانت عليـ * ـه صحابة المبعوث من عدنان

من أكمل الدين القويم وبين الـ * ـحجج التي يهدى بها الثقلان[2]

****

واطلب نجاتك إن نفسك والهوى * بحران في الدركات يلتقيان

نار يراها ذو الجهالة جنة * ويخوض فيها في حميم ءان

ويظل فيها مثل صاحب بدعة * يتخيل الجنات في النيران[3]

---

[1] لم أقف على قائله وكان الإمام مالك رحمه الله يردده كثيرا، كما في الانتقاء (ص37) وترتيب المدارك (51/1).

[2] لم أقف على قائلها.

[3] الأبيات من قصيدة نونية طويلة للإمام تاج الدين السبكي، ذكرها في طبقات الشافعية له (379/3).

لا تبتدع فلسوف تصلى النـار مَـذْ * مُوماً ومأخوذا على العصيـــان[1]

✱✱✱✱✱✱✱✱✱✱✱✱

تمسك بحبل الله واتبع الهـــدى * ولا تك بدعيا لعلك تفــلـــح

ولذ بكتاب الله والسنــة الــتي * أتت عن رسول الله تنجو وتربـح

ودع عنك آراء الرجال وقولهـــم * فقول رسول الله أزكى وأشـــرح[2]

✱✱✱✱✱✱✱✱✱✱✱✱

وإذا اقتديت فبالكتاب وسـنة الـ * ـمبعـوث بالدين الحنيف الزاهر

ثم الصحابة عند عَدْمك سـنـــة * فأولئك أهل نُهى وأهل بصائـر[3]

✱✱✱✱✱✱✱✱✱✱✱✱

فتابع الصالـــح ممـــن سـلـفـا * وجانب البدعة مـــمن خـلـفـا

فكل خير في اتبـاع من سـلـــف * وكل شر في ابتـداع من خـلـــف[4]

✱✱✱✱✱✱✱✱✱✱✱✱

فبالسنة الغراء كـــن متمسكـــا * هي العروة الوثقى التي ليس تفصم

تمسك بها مسك البخيل بـمالـــه * وعض عليها بالنواجذ تسـلـــم

وإياك مما أحدث الناس بعـدهـا * فمرتع هاتيك الحوادث أوخـم[1]

---

[1] لم أقف على قائله.

[2] الأبيات من حائية ابن أبي داود في نصرة السنة والحديث.

[3] الأبيات من قصيدة في شأن التقليد للإمام ابن عبد البر، ذكرها في كتابه "جامع بيان العلم" (2/ 230)، وفي المطبوع من جامع بيان العلم (الطاهر بدل الزاهر).

[4] هذا قول برهان الدين اللقاني الأشعري في منظومته "جوهرة التوحيد" (ص12).

فالإتباع أصل الفضائل كلها، وأسّ الكمالات بأسرها، والابتداع رأس الفضائح والمصائب، والسبب في اضمحلال الأمم وانحطاطها وما يصب من اللعنات عليها ويحل بها كل لحظة من القوارع والنوائب.

ألا ترى تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات، وإتيان الدنايا والمنكرات، حتى جاءها الدين واتبعته فوحّدها وقوّاها، وهذّبها ونوّر عقولها، وقوّم أخلاقها، وسدّد أحكامها، وأسّس أركانها، وشيّد بنيانها، ونمّى فيها أفنان العزة بعد ما ثبتت أصولها، ورسخت جذورها، فامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني إليها، ونفذت منها الشوكة، وعلت لها الكلمة، وكملت لها القوة، وساست من تولته بسياسة العدل والإنصاف، واستعلت آدابها على الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها (بعد أن كانت في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها).

حتى أحست مشاعر سواها من الأمم بأن لا سعادة إلا في انتهاج منهجها، وورود شريعتها، فصارت (وهي قليلة العدد) كثيرة الساحات كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل.

ثم بعد ما مضى زمان من نشأتها، أصبحت تخرج بالتدريج عن شرعتها، فنابها من المصائب ما نابها، وأصابها من الانحطاط ما أصابها. فخملت بعد

---

[1] هذه الأبيات من ميمية ابن القيم رحمه الله ذكرها في طريق الهجرتين (ص82).

النباهة، وضعفت بعد القوة، واسترقت بعد السيادة، وضيمت بعد المنعة، ووهى بناؤها، وانتثر منظومها، وتفرقت فيها الأهواء، وانشقت العصا، وتبدد ما كان مجتمعا، وانحل ما كان منعقدا، وانفصمت عرى التعاون، وانقطعت روابط التعاضد، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها.

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت * بها الحوادث حتى أصبحت طرفا[1]

فما أحقنا هنا أن ننشد هنا بلسان الأسف والاعتبار والعظة قول من وعظ وبالغ في الموعظة:

حسنت ظنك بالأيام إذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها * وعند صفو الليالي يحدث الكدر

يا معشر الناس من كان الزمان له * مساعدا فليكن من رأيه الحذر[2]

على أن ذلك هو طبيعة هذا الكون البشري، فلا محيص من متابعتها، والسير على قوانينها، والجري مع تيارها، والمشي معها قدما بقدم، سواء من سبيل العدم إلى الوجود أو الوجود إلى العدم، لأن لكل شيء شرة، ولكل شرة فترة.

إذا تم شيء بدا نقصه * ترقب زوالا إذا قيل تم[3]

ما طار طير وارتفع * إلا كما طار وقع[1]

---

[1] البيت لأبي تمام.

[2] البيت الأول والثاني نسبهما الأصمعي إلى سعيد بن وهب أحد شعراء العرب، كما في محاضرات الأدباء (ص484)، وكان الشافعي يرددهما، كما في الانتقاء لابن عبد البر (ص101) وهما في الديوان المنسوب إليه، وأما البيت الثالث فلعله أضيف إليهما.

[3] هذا البيت منسوب إلى عبد الله بن المبارك وهو في ديوانه (ص25).

لكل شيء إذا ما تم نقصان * فلا يغر بطيب العيش إنسان[2]

فتبين مما قدمناه آنفا أنه ما جمع كلمة الأمة العربية وأنهض همم آحادها، ولحم ما بين أفرادها، إلا اتباعها لذلك الدين القويم الأصول المحكم القواعد الشامل لأنواع الحكم، الباعث على الإلفة الداعي إلى المحبة المزكي للنفوس، المطهر للقلوب من أدران الخسائس، المنور للعقول البشرية، النافخ روح الإباء والشمم في معتنقيه، الكافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مباني الاجتماعات البشرية والحافظ لوجودها، المنادي بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية. ذلك الدين الإسلامي الذي هو دين الفطرة والكمال، المانح للعقل والإرادة شرف الاستقلال، المقيم قواعد العدل والمساواة، الآمر بمجاهدة النفس في سبيل الخير ولي عنانها عن طريق الغي والهوى، المرشد إلى منهج الحق والهدى، الحامل على السير في محجة القصد والاعتدال، والتوسط في كل الأحوال، الآتي بما لا تحلم به أفكار الفلاسفة ونهاية ما تطمح إليه دعاة الفضيلة ونصراء الإنسانية من بث الفضائل والخيرات، والقضاء على المفاسد والمنكرات، الآمر جميع معتنقيه بالاتصاف بسائر الأخلاق السامية، والشيم العالية. مما أجمع العقلاء على استحسانه، واجتهد دعاة الفضيلة في سبيل نشره ووسائل بيانه، كالصدق، والحياء، والنزاهة، والغيرة، والشجاعة، والإقدام، والثبات، والمثابرة على

---

[1] البيت من قول إسماعيل بن قطري القراطيسي كما في المستطرف للأبشيهي (1/ 164)، وقبله:

حسبي بعلمي إن نفع * ما الذل إلا في الطمع

من راقب الله نزع * عن سوء ما كان صنع

[2] البيت من قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس.

العمل، والصبر الذي لا ينفد، والجَلد الذي لا يهن، والاستهزاء بغرور الحياة، وحقارة الدنيا، والائتلاف، والتعاون، والمؤاخاة، والاتحاد، وحب الوطن، وعلو الهمة، والوفاء بالعهد، والإخلاص في العمل، والنجدة، والكرم، والمروءة، والفتوة، والاقتصاد، وطهارة الذمة، والشكر، والعفو، والحلم، والوقار، والأناة، والتواضع، ولين الجانب، وصلة الرحم، والبرور، والشفقة، والرحمة، والعفة، والورع، وإيثار الغير، وعدم الاستئثار، وغير هذا من مكارم الأخلاق الإسلامية التي كانت شأن سلفنا الصالح وشنشنتهم حتى وصلوا في المدنية إلى أقصى غاية، وجاوزوا فيها حد النهاية.

ومليحة شهدت لها ضراتها * والحق ما شهدت به الأعداء[1]

فاتباع الأصول الدينية المبرأة من محدثات البدع هو السبب في نهوض الأمة وارتقائها، وشفائها من أدوائها.

والذي نراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها إنما نشأ عن طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا، وحدوث بدع ليست من الدين في شيء، أقامها دعاة البدع مقام تلك الأصول الثابتة، وأعرضوا عما يرشد إليه الدين، وعما أتى لأجله، وأعدته الحكمة الإلهية له.

فاستبدلوا بالشريعة مذاهب وتقاليد هم بها عاملون، "**فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**" المؤمنون53، وغرتهم الحياة الدنيا

---

[1] لم أقف على قائله، ويروى: والحُسن ما شهدت به الأعداء، وكذلك: والفضل ما شهدت به الأعداء.

فطغوا بالميزان، وغرّهم بالله الغرور، فانحرفوا عن صراط القرآن، وطلبوا العزة بالكلم الخبيث، فكانت عزتهم ذلا، وكثرتهم قلا، ومكروا السيئات، فقادوا العلماء والفقهاء بسلاسل سياسة السلاطين والأمراء، وأوهموا الوازرين والخطائين، بأن سيحمل أثقالهم عنهم نفر من صلحاء الميتين "**وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**" العنكبوت12-13، ففسدت بذلك الأعمال والنيات، واتكل الأحياء على شفاعة الأموات، وتبع ذلك تفرق الكلمة بالباطل، وعدم الاجتماع على نصرة الحق، فخلا الجو للأمراء الظالمين، والرؤساء الغارين، وفسد بذلك على الأمة أمر الدنيا والدين.

طغوا في الكتاب ففضّلوا الأعمى على البصير، وطغوا في الميزان فاختاروا الظلمات على النور، وأخرجوا الأمة من الظل إلى الحرور، وفقدوا حياة العمل والتعاون فاستمدوا المعونة من أصحاب القبور.

جهلوا آيات الله في الأكوان، وحِكمه في اختلاف الأوضاع والألوان، ورغبوا عن معرفته تعالى بآياته في الآفاق وفي أنفسهم كما أرشدهم القرآن، فكانوا بلا علم ولا عرفان، ولا خشية ولا إذعان، وإنما هي دعاو يلوكها اللسان، وأماني يسوّلها الشيطان.

وجملة القول أنهم أضاعوا مقاصد القرآن، وإن شئت قلت أضاعوا دين الإسلام كله، فإن الإسلام هو القرآن وما جاء في بيانه من سنة النبي عليه

الصلاة والسلام، قال تعالى: "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ" النحل 44، وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا كان شيء من أمر دينكم فإلي، وإذا كان شيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم به"[1]، وقد حرّم علينا أولئك المذكورون الاهتداء بالقرآن والسنة في أمر ديننا، ولم يعطونا حرية للعمل في أمر دنيانا، وزعموا أن الدين هو الذي حكم بذلك التحريم، وسلب هذه الحرية.

فإذا احتججت عليهم بالكتاب والسنة قالوا: "إنما نحن وإياك من المقلدين"، وإذا استدللت عليهم بالعقل قالوا: "إنما أنت من الملحدين"، ولا يرضيهم إلا اتباع آرائهم وآراء بعض المؤلفين الميتين، فهدموا ذلك البناء المتين، وما زالوا هادمين.

حتى تقلص ظل السنن والشعائر الدينية، وحلت البدع والمنكرات محلها، وجردت الكتب المؤلفة في الدين من أصول الدين وسننه ومحاسنه وآدابه وقوانينه الاجتماعية والأخروية، وحشيت بالخرافات والأكاذيب والأحاديث المفتراة على صاحب الشريعة الإسلامية، وقصر جل حملة العلم نظرهم عليها كأنها أم الدين[2]،

---

[1] روي من حديث عائشة، ومن حديث أنس، ومن حديث أبي قتادة، ومن حديث رافع بن خديج، ومن حديث طلحة بن عبيد الله، ومن حديث جابر، وأخرجه مسلم من حديث عائشة بلفظ: "أنتم أعلم بأمر دنياكم".

[2] قلت وقد حييت ولله الحمد في هذه العقود الأخيرة صحوة الحديث وبدأ الناس يفهمون ويتفهمون ويميزون بين الصحيح والضعيف ويسألون عن حكم الحديث تصحيحا وتضعيفا، وكان الذي أحيى ما اندثر من معالم هذا العلم الشريف، محدث الديار الشامية بل محدث الأرض إمام العصر وحسنة الدهر العلامة الألباني رحمه الله تعالى، فإنه عمل على تنقية السنة من الضعيف والموضوع، وسلسلته الضعيفة وتخاريجه الحديثية شاهدة له بذلك، شكرها الله له.

بل شدد في أمرها قوم فقالوا: إنما هي الدين وإن خالفت أصول الدين كتابا وسنة بلا بحث فيها ولا ترو في شأنها، فأصبح إنكار البدع والحط منها يُعَد إزراء على الدين وانتقاصا للشريعة يوجبان أشد العقاب، وتؤسس لمقاومة منكريها الجمعيات والأحزاب. ولما كان للباطل جولة ربما يغتر الغرُّ بها، أحببت أن أذكر له شيئا من البدع المحدثة في الدين وأصورها له تصويرا جليا حتى يكون له ذلك مقياسا يقيس عليه الباقي، وأبين له بعض ما نشأ عنها من الأضرار التي أحاطت بنا إحاطة السوار بالمعصم والحجل بالساق، ليعلم أي الفريقين خير مقاما، فأقول:

ذكر شيء مما فشا في الإسلام من البدع وإيضاح بعض ما نشأ عنها

نظرا لغفلة علماء الدين وتهاونهم في الهدى والإرشاد، وميل الجهلة الطغام إلى كل مبتدع غريب ولو أداهم إلى مشاركة المشركين فيه لصعوبة التكاليف الشرعية عليهم، وضعوا أوضاعا تشابه أعمال المشركين في الصورة أو في الحكم، وقاموا بها لسهولتها عليهم، حيث لم يدخلوا بسببها تحت أمر غيرهم حتى أوشكت حالتهم أن تصير شبيهة بحالة المشركين وعاد بينهم الدين غريبا كما بدأ، واختلفوا في ذلك اختلافا كثيرا حسب اجتهاد كل واحد منهم ووفور ذكائه وقوة فكره وحدة ذهنه.

فمنهم الذين اتخذوا القبور حرمات ومعابد، فبنوا عليها المساجد والمشاهد، وزخرفوها بما يجاوز حد السرف بمراتب، واصطلحوا فيها على بناء النواويس[1] واتخاذ الدرابيز[2] والكسا المذهبة وتعليق الستور والأثاث النفيسة، وتزويق الحيطان وتنميقها، وإيقاد السرج فوق تلك القبور ككنائس النصارى

[1] جمع ناووس وهو صندوق من خشب أو نحوه يضع النصارى فيه جثة الميت ومقبرة النصارى (المعجم الوسيط 2/ 962).

[2] جمع دربوز وهو بناء خشبي يوضع فوق قبر الضريح مغلف بأكسية، يتمسح به الزائر طلبا لبركة المقبور.

وسوق الذبائح إليها، وإراقة الدماء على جدارنها، والتمسح بها، وحمل ترابها تبركا، والسجود لها، وتقبيلها، واستلام أركانها والطواف حولها، والنذر لأهلها، وتعليق الآمال بهم، والتوسل إليهم بالله ليقضوا لسائليهم الحوائج (كما يزعمون)، فيقولون عند زيارتهم: "قدمت لك وجه الله يا سيدي فلان إلا ما قضيت لي حاجتي"، جاعلين الحق سبحانه وتعالى وسيلة تقدم إلى أولئك المقبورين للتوصل إلى نيل أغراضهم.

مع أن الميت قد انقطع عمله، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، فكيف لمن استغاث به أو سأله قضاء حاجته أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها، فإن الله تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه. واستعانة ذلك الميت وسؤاله لم يجعلها سبحانه سببا لإذنه، وإنما السبب في إذنه كمال التوحيد، فجاء هذا بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها، على أن الميت محتاج إلى من يدعو له ويترحم عليه ويستغفر له، كما أوصانا النبي صلى الله عليه وسلم إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم ونسأل لهم العافية والمغفرة، فعكس أولئك القبوريون هذا وزاروهم زيارة العبادة لقضاء الحوائج والاستعانة بهم، وجعلوا قبورهم قريبة من أن تصير أوثانا تعبد، وقد شاع هذا بين المسلمين وذاع، وعمّ كل ما يستوطنون به من البقاع[1].

---

[1] هذا القسم الأول من أولئك وهم جماعة من المشركين الذين اتخذوا الأموات آلهة يسألونهم ويرجونهم..

ومنهم من لم يرضوا بالشرع المبين، فابتدعوا أحكاما في الدين، وشرعوا واجبات وسننا ومستحبات، واخترعوا عبادات وقربات، لم يأت بها الإسلام ولا عهد له بها، كأن الله تعالى ترك لنا ديننا ناقصا فأكملوه، أو أودع لنا فيه سبحانه بعض الفساد فلم يوافقوا عليه وأصلحوه، أو لم ينزل على رسوله يوم حجة الوداع تلك الآية الكريمة المشيرة إلى إكمال هذا الدين الإسلامي: "**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**" المائدة3، أو لم يقل رسوله في خطبته فيها: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي"[1]، أو لم يتم تبليغ رسالته فهم أتموها لنا، أو كتم أو أسر شيئا من الدين كما يزعمون، تعالى الله عما يقولون، وتنزه رسوله عما يافكون[2].

ومنهم جماعات اتخذوا دين الله لهوا ولعبا، فجعلوا منه القيام والرقص حالة الذكر الجهري، ظانين أن ما يفعلونه من الرقص حالة الذكر عبادة، مع أن من ظن ذلك تجب عليه التوبة، فإن ناظر على ذلك، وقال: إنه عبادة يتقرب

---

[1] أخرجه الحاكم (1/ 172)، والبزار (2/ 479)، والدارقطني (4/ 245)، والبيهقي في الكبرى (10/ 114)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وإسناده ضعيف جدا، لكن قال ابن عبد البر في التمهيد: "محفوظ معروف مشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم عند أهل العلم شهرة يكاد يستغني بها عن الإسناد"، قلت: والذي صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: "تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي"، أخرجه مسلم والنسائي في الكبرى وغيرهما، من حديث زيد بن أرقم، وروي عن غيره من الصحابة.

[2] هذا القسم الثاني هم قوم من المبتدعة والمحدثين الغالين في العبادات.

بها إلى الله تعالى يخالف الإجماع فيكون عاصيا آثما إن لم يكن كافرا[1] بناء على القول بتكفير مخالف الإجماع[2].

وكيف يعتقد من أودع الله فيه نور العقل أن الشطح وما شابهه مما يعبد الله به، مع تيقنه أن ذلك مجرد لهو ولعب.

متى علم الناس في ديننا * بأن الغنا سنة تتبع
وأن يأكل المرء أكل الحما * ر ويرقص في الجمع حتى يقع
وقالوا سكرنا بحب الإلـ * ـه وما أسكر القوم إلا القصع
كذلك البهائم إن أشبعت * يرقصها ريها والشبع
فيا للعقول ويا للنهى * ألا منكر منكم للبدع
تهان مساجدنا بالسما * ع وتكرم عن مثل ذلك البيع[3]

ومما يزيد الطين بلة، والطنبور نغمة أنهم يخللون ذكر الله وقتئذ بإنشاد مدائح أهون ما فيها الإطراء الذي نهانا عنه سيد المتواضعين حتى لنفسه الشريفة، فقال: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى، ولكن قولوا عبد الله

---

[1] انظر تعظيم المنة بنصرة السنة 2.

[2] الذي يكفر هو منكر الإجماع، وأما مخالف الإجماع فهذا كفره بعضهم، منهم ابن حزم وقد تعقبه شيخ الإسلام ابن تيمية في "نقد مراتب الإجماع"، وبين أن كثيرا من العلماء لا يكفرون مخالف الإجماع ("نقد مراتب الإجماع" ص: 3)، وبحث هذه المسألة يتطلب أكثر من هذا.

[3] هذه الأبيات لابن عسكر الموصلي الملقب بظهير الدين مع بعض التغيير، قالها في شخص يقال له مكّي، كان شيخ زاوية لجماعة من الفقراء، بالبوازيخ وهي بليدة بالقرب من السلامية، ومطلعها:
ألا قل لمكّي قول النصوح   فحق النصيحة أن تستمع
وفيات الأعيان (1/ 38)، والوافي بالوفيات (2/ 272).

ورسوله"[1]، ولا تسأل عن تغاليهم في الاستغاثة بشيوخهم والاستمداد منهم بصيغ لو سمعها مشركو قريش لنسبوهم إلى الكفر والزندقة والمروق من الدين، لأن أبلغ صيغة تلبية كانت لمشركي قريش هي قولهم: "لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك"، وهي كما ترى أخف شركا من المقامات الشيوخية التي يهدرون بها إنشادا بأصوات عالية مجتمعة، وقلوب محترقة خاشعة[2].

ومنهم أقوام كثيرون اصطلحوا على جعل يوم من السنة مخصوصا بفضيلة أكل اللحوم النيئة والطواف في الأسواق، ودق الطبول والنفخ في الأبواق، وتلطيخ الثياب بالدماء المسفوحة طول يومهم الذي يكونون فيه قرناء الشيطان، مع أكل الزجاج والشوك والحيات والعقارب وشرب القطران[3].

ويزيدهم قبحا وبشاعة وتمكنا في الهمجية ما يتمثلون به من الحيوانات البهيمية، ويتشبهون به من الوحوش الضارية، فيشخصون للإنسان كل ما امتازت به تلك الحيوانات بغاية البراعة والإتقان، ويستميلون نفوس الرائين

---

[1] أخرجه البخاري وغيره من حديث عمر رضي الله عنه.

[2] هذا القسم الثالث وهو فرقة من المتصوفة أصحاب الشرعة المحرفة، الذين دينهم الرقص والشطح والغناء.

[3] هذا القسم الرابع وهم جماعة من المجاذيب الذين جذبهم الشيطان إلى حضرته فصارت تظهر منهم هذه الأحوال الشيطانية، فيحسبهم العوام أنهم أصحاب كرامات، فيكرمونهم بالعطاء، ويخصونهم بالتوقير والتعظيم.

ويسترعون أسماعهم بما يحسنون به تلك الأدوار من أنواع المهايتات والصياح، ويجوزون الشوارع الواسعة، ذات الأطراف الشاسعة، على هذه الحالة البشيعة المنظر، مختلطين بالنساء، حاملين الرايات الشيطانية، جاعلين أبناء شيوخهم وسطهم، راكبين على عتاق الخيل، لابسين أحسن ما عندهم من الثياب محفوفين بالعز والتأييد والمهابة والإقبال، منظورين بعين التعظيم والإجلال.

وذلك ليستمطروا بهم سحائب فضلات الجهال، من النساء والرجال، الذين يأتون من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم (حسب زعمهم) في ذلك اليوم المشهود عند الشياطين، المحبوب عند أعداء الأمة والدين، ولينالوا بركة أولئك الأوباش الطغام الذين ينزل عليهم من الإعانات الشيطانية، والإمدادات الجارية طبق الأهواء النفسانية ما لا يحصى بِعَدٍّ، ولا يقف عند حد.

ومثل هؤلاء الرعاع قوم آخرون أبشع منهم منظرا، وأقبح حالة، يطوفون بالأسواق، ويضربون الطبول، وينفخون في الأبواق مثل سابقيهم، إلا أن هؤلاء يشدخون رؤوسهم أثناء تطوفهم ويضربونها ويسيلون دماءها بالأسلحة والفؤوس والقلال وغيرها من أنواع الآلات المحددة التي لا أقدر على وصفها مما يتخذونه قصدا للقيام بهذا الأمر الفظيع[1].

[1] في هذا أعظم مشابهة بما يفعله أهل البدع من الروافض في يوم عاشوراء من التطبير بلطم الصدور وجلد الظهور بسلاسل من حديد حتى تسيل الدماء، وليس هذا من دين الإسلام في شيء.

ويستعينون على كل ما ذكر بشرب المسكرات، واستعمال المرقدات والمخدرات، وهم سواء مع من ذكرناهم سابقا وقدمنا وصفهم في هذا الفعل القبيح والعمل السمج.

ولكن مع هذا كله فقد حصلوا على مراكز عظمى في القلوب، واستعمروا متسعات كبيرة كانت فارغة في النفوس لما لهم من القدرة على تملك المشاعر، والسيطرة على الإحساس والوجدان بأساليب الخداع التي يستعملونها، وطرق التدليس التي يسلكونها، حتى أنهم سموا أفعالهم تلك بالحضرة موهمين بذلك أنهم وقتئذ يكونون في حضرة الله تعالى، وحاشا الله، فما هم إلا في حضرة الشيطان لعنه الله، محى الله مددهم وعددهم.

وليس العجب من انتشار ذلك بين العامة الذين هم كالأنعام، في كل الأمم والأقوام، بل العجب دخوله على كثير ممن يدعون أنهم من الخواص والعلماء وانتصارهم لأهله، كأنه من عزيز الكمالات في الدين الإسلامي.

حتى أصاب جسم الأمة الإسلامية بسبب ذلك أمراض فعالة، وسرت في عروقها سموم قتالة، أولها: احتجاب نور الشريعة عن أنظار العالم الإسلامي وراء ستر تقليد من لا علاقة له بالدين. ثانيها: شيوع البدع والأحداث ونزولها منزلة أمهات المسائل الدينية. ثالثها: استكانة النفوس لتلك البدع والركوع أمامها من العلماء جهلا أو تجاهلا أو تأولا وتقولا، ومن العامة تقليدا لهم. رابعها: قعود أهل الإيمان والنظر الصحيح عن بيان حقيقة الدين الإسلامي،

خوفا من علماء السوء (وهم كثيرون) أن يثيروا العامة عليهم، كما اتفق ذلك لكثير من أهل العلم الصحيح المتقدمين وبعض العلماء الموجودين. خامسها: وقوع المسلمين في الحيرة إذا توجه عليهم اعتراض في أمر، وقامت عليهم حجة العقل في قبحه ظنا منهم أن ما هم عليه هو الدين.

وهذه الأمراض والأعراض كافية لأن تفقد الدين حياته الأدبية (لا قدر الله)، ولولا أن أصول الدين محفوظة من التغيير والتبديل لم تصل إليها يد عابث لما بلغنا شيء من حقائق الدين، ولاندثر كما اندثر غيره من الأديان التي نالت أصولها أيد المتلاعبين- والأمر لله ما شاء فعل.

نتيجة

إذا علمت ما كانت عليه الأمة العربية قبل اعتناقها للدين الإسلامي من أنواع الهمجية، وعرفت ما بلغته بعد اتباعها لذلك الدين الحنيف من ضروب الترقي والمدنية، وتحققت بطلان ما ذكر من البدع وأنها مجرد خزعبلات وأوهام، ليس لها أساس من الشريعة ولا قوام، وتبين لك بيانا جليا ما نشأ عنها من الأضرار التي مني بها هذا الدين ولم يبق لك إشكال في أن الحق هو ما تدعو إليه الشبيبة وبه تدين، وكنت ممن يهتم بأمور المسلمين، ويسعى في إيصال النفع وإسداء النصح لسائر المؤمنين، فيجب عليك أولا أن تنقذ نفسك وعائلتك بأجمعها من ويلات البدع شيئا فشيئا إلى أن تتخلص من جميعها، لأنك مسئول عنها ومأمور برعايتها، وكذلك كل من كانت لك عليه أدنى سلطة، ثم تشتغل بعد ذلك بنصح من كان واقعا في طينة الخبال، حتى تهديه إلى الصراط المستقيم، ولو أدى ذلك إلى زمان طويل، ولا تمل أو تتجاف عن نصحه وإرشاده، وانشر ذلك بين سائر طبقات الناس، واذكره في جميع الاجتماعات والاحتفالات، ولا تخف شوكة المبتدعين وسورة متبعيهم من الحكام المستبدين، واحذر كل الحذر من أن تتأثر بأقوال المتعصبين من المبتدعين الضالين، وكن ثابت الإرادة، قوي العزم، شديدا على أهل البدع، لا

تخاف في الله لومة لائم، وخصوصا على أولئك المعممين المعتكفين على البدع التي ينسبونها إلى طريق الصوفية ويعدونها جزءا منها، لأن ذلك مجرد كذب لا أصل له، فالصوفية رضي الله عنهم برءاء من ذلك كله[1]، وطريقهم منزهة عن فعله، وإنما تلك بدع أحدثت في الطريق ليست منها في شيء، ولو قدّر الناس الطريق حق قدرها لأجلوها ونزهوها عن البدع والأهواء، فإنها أكبر داع في الأمة لاجتماع العصبية وتأليف القلوب وتوحيد الكلمة، ويؤدي[2] بها ما لا يؤدي بالسوط، لأن السوط يحرك الأجسام، والطريق تحرك القلوب، وفرق عظيم بين من يعمل في الظاهر ومن يعمل في الظاهر والباطن.

إلا أنه لكثرة المنتمين إلى هذه الطريق من ذوي الغش والتلبيس، والخداع والتدليس، وإدخالهم البدع والأهواء فيها، وزعمهم أن ذلك منها، ومتابعة العوام لهم عليها، قد التبست على كثير من الناس حقيقتها، وخفيت عنهم جليتها.

ورفعا لهذا اللبس الواقع لهم، والخفاء الذي عندهم، أحببت أن أبيّن الطريق، وأذكر أقوال الصوفية الصادقين فيها، لئلا يلتبس الحق بالباطل، والمحلي بالعاطل.

---

[1] المصنف يقصد طائفة معينة من الصوفية وهم بعض المتسببين إلى العلم والصلاح الذين ضبطوا أفعالهم وأقوالهم بموافقة الكتاب والسنة كما أثر عنهم، وسيذكر جماعة منهم بأقوالهم.

[2] لعل الصواب يؤدى.

الطريق وأقوال الصوفية فيها

رجوعا إلى ما قدمناه من الآيات والأحاديث السابقة وفرارا من وعيدها، قيَّد رجال السلاسل طريقهم المأخوذة عنهم والمعزوة إليهم بالشريعة الغراء، وبنوها على اتباع السنة واجتناب ما خالفها، حتى قال مذكرهم وحافظ مأخذهم وعمود نحلتهم أبو القاسم القشيري[1] إنهم إنما اختصموا باسم التصوف انفرادا به عن أهل البدع، فذكر أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتَسَمَّ أفاضلهم في عصرهم باسم علم سوى الصحبة، إذ لا فضيلة فوقها، ثم سمِّي من يليهم التابعون ورأوا أن هذا الاسم أشرف الأسماء، ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن له شدة عناية في الدين: الزهاد والعباد، قال: ثم

---

[1] أبو القاسم القشيري، هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك من أئمة الصوفية، ولد سنة 377هـ، أخذ العلم عن جماعة منهم الحاكم وابن فورك، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو إسحاق الإسفرايني، وأخذ التصوف عن أبي علي الدقاق، وقد زوجه هذا الأخير ابنته، وكان في العقيدة على مذهب الأشعري، وقد صنف للقوم "الرسالة"، وله التفسير، ترجمته في "تاريخ بغداد" (11/ 83)، وطبقات الأولياء لابن الملقن (ص:43).

وقد انتقده ابن الجوزي على ما وضعه في الرسالة من العجائب، كالكلام في "الفناء والبقاء والقبض والبسط والوقت والحال، والوجد والوجود، والجمع والتفرقة، والصحو والسكر، والذوق.." تلبيس إبليس (ص:149).

ظهرت البدع وادّعى كل فريق أن فيهم زهادا وعبادا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله الحافظون قلوبهم عن الغفلة باسم التصوف هذا معنى كلامه[1].

---

[1] وقال ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص:145-152) عن هذه المفارقة: "الصوفية من جملة الزهاد، وقد ذكرنا تلبيس إبليس على الزهاد، إلا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال، وتوسموا بسمات فاحتجنا إلى إفرادهم بالذكر، والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب، فلا بد من كشف تلبيس إبليس عليهم في طريقة القوم ولا ينكشف ذلك إلا بكشف أصل هذه الطريقة وفروعها وشرح أمورها والله الموفق للصواب.

إلى أن قال رحمه الله: كانت النسبة في زمن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الإيمان والإسلام، فيقال: مسلم ومؤمن. ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها، وأخلاقا تخلقوا بها، ورأوا أن أول من انفرد به بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام، رجل يقال له: صوفة، واسمه الغوث بن مر، فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى، فسموا بالصوفية، أنبأنا محمد بن ناصر عن أبي إسحاق إبراهيم بن سعيد الحبال قال: قال أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ: قال سألت وليد بن القاسم: إلى أي شيء ينسب الصوفي؟ فقال: كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى الله عز وجل وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم فهم الصوفية، قال عبد الغني فهؤلاء المعروفون بصوفة ولد الغوث بن مر بن أخي تميم بن مر. وبالإسناد إلى الزبير بن بكار قال: كانت الإجازة بالحج للناس من عرفة إلى الغوث بن مر بن أد بن طابخة ثم كانت في ولده، وكان يقال لهم صوفة، وكان إذا حانت الإجازة، قالت العرب: أجز صوفة، قال الزبير: قال أبو عبيدة: وصوفة وصوفان، يقال: لكل من ولي من البيت شيئا من غير أهله أو قام بشيء من أمر المناسك يقال لهم صوفة وصوفان، قال الزبير حدثني أبو الحسن الأثرم عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي قال: إنما سمي الغوث بن مر، صوفة لأنه ما كان يعيش لأمه ولد، فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة، ففعلت فقيل له صوفة ولولده من بعده، قال الزبير: وحدثني إبراهيم بن المنذري عن عبد العزيز بن عمران، قال: أخبرني عقال بن شبة، قال: قالت أم تميم بن مر وقد ولدت نسوة، فقالت لله علي إن ولدت غلاما لأعبدنه للبيت، فولدت الغوث بن مر، فلما ربطته عند البيت أصابه الحر فمرت به وقد سقط واسترخى، فقالت: ما صار ابني إلا صوفة فسمي صوفة، وكان الحج وإجازة الناس من عرفة إلى منى ومن

منى إلى مكة لصوفة. فلم تزل الإجازة في عقب صوفة حتى أخذتها عدوان، فلم تزل في عدوان حتى أخذتها قريش.

ثم قال رحمه الله: وقد ذهب قوم إلى أن التصوف منسوب إلى أهل الصفة، وإنما ذهبوا إلى هذا لأنهم رأوا أهل الصفة على ما ذكرنا من صفة صوفة في الانقطاع إلى الله عز وجل، وملازمة الفقر، فإن أهل الصفة كانوا فقراء يقدمون على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما لهم أهل ولا مال، فبنيت لهم صفة في مسجد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيل أهل الصفة والحديث بإسناد عن الحسن قال: بنيت صفة لضعفاء المسلمين فجعل المسلمون يوصلون إليها ما استطاعوا من خير، وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتيهم فيقول: السلام عليكم يا أهل الصفة، فيقولون: وعليك السلام يا رسول الله، فيقول: كيف أصبحتم؟ فيقولون: بخير يا رسول الله. وبإسناد عن نعيم بن المجمر عن أبيه عن أبي ذر قال: كنت من أهل الصفة، وكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيأمر كل رجل فينصرف برجل، فيبقى من بقي من أهل الصفة عشرة أو أقل فيؤثرنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعشائه فنتعش، فإذا فرغنا قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ناموا في المسجد".

قال المصنف: وهؤلاء القوم إنما قعدوا في المسجد ضرورة، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة، فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عن تلك الحال وخرجوا، ونسبة الصوفي إلى أهل الصفة غلط، لأنه لو كان كذلك لقيل صفي، وقد ذهب إلى أنه من الصوفانة وهي بقلة رعناء قصيرة، فنسبوا إليها لاجتزائهم بنبات الصحراء، وهذا أيضا غلط لأنه لو نسبوا إليها لقيل: صوفاني، وقال آخرون: هو منسوب إلى صوفة القفا، وهي الشعرات النابتة في مؤخره، كأن الصوفي عطف به إلى الحق وصرفه عن الخلق، وقال آخرون: بل هو منسوب إلى الصوف وهذا يحتمل والصحيح الأول.

وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه، وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق، إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا، والثواب في الأخرى، والحديث بإسناد عن الطوسي يقول: سمعت أبا بكر بن المثاقف يقول: سألت الجنيد بن محمد عن التصوف؟ فقال: الخروج عن كل خلق رديء، والدخول في كل خلق سني، وبإسناد عن عبد الواحد بن بكر قال سمعت محمد بن خفيف يقول: قال رويم كل الخلق قعدوا على الرسوم وقعدت هذه الطائفة على الحقائق، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع، وهم طالبوا أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق.

قال المصنف: وعلى هذا كان أوائل القوم فلبس إبليس عليهم في أشياء، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني، فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن.

وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات، فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة فرفضوا ما يصلح أبدانهم، وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا أنه خلق للمصالح وبالغوا في الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري.

ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات، وصنفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي، وجاء آخرون فهذبوا مذهب التصوف وأفردوه بصفات ميزوه بها من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق، وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة، ثم ما زال الأمر ينمي والأشياخ يضعون لهم أوضاعا ويتكلمون بواقعاتهم ويتفق بعدهم عن العلماء لا بل رؤيتهم ما هم فيه أو في العلوم حتى سموه العلم الباطن، وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر، ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة فادعى عشق الحق والهيمان فيه فكأنهم تخايلوا شخصا مستحسن الصورة فهاموا به وهؤلاء بين الكفر والبدعة، ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق ففسدت عقائدهم، فمن هؤلاء من قال بالحلول ومنهم من قال بالاتحاد، وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سننا، وجاء أبو عبد الرحمن السلمي فصنف لهم كتاب السنن وجمع لهم حقائق التفسير، فذكر عنهم فيه العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم، وإنما حملوه على مذاهبهم، والعجب من ورعهم في الطعام وانبساطهم في القرآن! وقد أخبرنا أبو منصور عبد الرحمن القزاز قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: قال لي محمد بن يوسف القطان النيسابوري، قال: كان أبو عبد الرحمن السلمي غير ثقة ولم يكن سمع من الأصم إلا شيئا يسيرا، فلما مات الحاكم أبو عبد الله بن البيع حدث عن الأصم بتاريخ يحيى بن معين وبأشياء كثيرة سواه وكان يضع للصوفية الأحاديث.

قال المصنف: وصنف لهم أبو نصر السراج كتابا سماه "لمع الصوفية" ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول ما سنذكر منه جملة إن شاء الله تعالى، وصنف لهم أبو طالب المكي "قوت القلوب" فذكر فيه الأحاديث الباطلة، وما لا يستند فيه إلى أصل من صلوات الأيام والليالي، وغير ذلك من الموضوع، وذكر فيه الاعتقاد الفاسد، وردد فيه قول: "قال بعض المكاشفين" وهذا كلام فارغ، وذكر فيه عن بعض الصوفية: "إن الله عز وجل يتجلى في الدنيا لأوليائه"، أخبرنا أبو منصور القزاز أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: قال أبو طاهر محمد بن العلاف: دخل أبو طالب المكي إلى البصرة بعد وفاة أبي الحسين بن سالم، فانتمى إلى مقالته، وقدم بغداد فاجتمع الناس عليه في مجلس الوعظ، فخلط في كلامه، فحفظ عنه أنه قال: "ليس على المخلوق أضر من الخالق"، فبدعه الناس وهجروه، فامتنع من الكلام على الناس بعد ذلك، قال الخطيب: وصنف أبو طالب المكي كتابا سماه "قوت القلوب" على لسان الصوفية، وذكر فيه أشياء منكرة مستبشعة في الصفات.

قال المصنف: وجاء أبو نعيم الأصبهاني فصنف لهم كتاب "الحلية" وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة، ولم يستحي أن يذكر في الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وسادات الصحابة رضي الله عنهم، فذكر عنهم فيه العجب، وذكر منهم شريحا القاضي، والحسن البصري، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل، وكذلك ذكر السلمي في طبقات الصوفية: الفضيل وإبراهيم بن أدهم ومعروفا الكرخي وجعلهم من الصوفية بأن أشار إلى أنهم من الزهاد.

فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد، ويدل على الفرق بينهما، أن الزهد لم يذمه أحد، وقد ذموا التصوف على ما سيأتي ذكره، وصنف لهم عبد الكريم بن هوزان القشيري كتاب "الرسالة" فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء، والقبض والبسط، والوقت والحال، والوجد والوجود، والجمع والتفرقة، والصحو والسكر، والذوق والشرب، والمحو والإثبات، والتجلي والمحاضرة والمكاشفة، واللوائح والطوالع واللوامع، والتكوين والتمكين، والشريعة والحقيقة، إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء، وتفسيره أعجب منه، وجاء محمد بن طاهر المقدسي فصنف لهم "صفوة التصوف" فذكر فيه أشياء يستحي العاقل من ذكرها، سنذكر منها ما يصلح ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وكان شيخنا أبو الفضل بن ناصر الحافظ يقول: كان ابن طاهر يذهب مذهب الإباحة، قال: وصنف كتابا في جواز النظر إلى المراد، أورد فيه حكاية عن يحيى بن معين قال: رأيت جارية بمصر مليحة صلى الله عليها، فقيل له: تصلي عليها! فقال: صلى الله عليها وعلى كل مليح، قال شيخنا ابن ناصر: وليس ابن طاهر بمن يحتج به، وجاء أبو حامد الغزالي فصنف لهم كتاب "الإحياء" على طريقة القوم وملأه بالأحاديث الباطلة، وهو لا يعلم بطلانها، وتكلم في علم المكاشفة، وخرج عن قانون الفقه، وقال: أن المراد بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه أنوار هي حجب الله عز وجل ولم يرد هذه المعروفات، وهذا من جنس كلام الباطنية، وقال في كتابه "المفصح بالأحوال": إن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتا، ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق.

قال المصنف: وكان السبب في تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء قلة علمهم بالسنن والإسلام والآثار، وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم، وإنما استحسنوها لأنه قد ثبت في النفوس مدح الزهد، وما رأوا حالة أحسن من حالة هؤلاء القوم في الصورة، ولا كلاما أرق من كلامهم، وفي سير السلف نوع خشونة، ثم أن ميل الناس إلى هؤلاء القوم شديد لما ذكرنا من أنها طريقة ظاهرها النظافة والتعبد وفي ضمنها الراحة والسماع والطباع تميل إليها، وقد كان أوائل الصوفية ينفرون من السلاطين والأمراء فصاروا أصدقاء.

فصل: وجمهور هذه التصانيف التي صنفت لهم لا تستند إلى أصل وإنما هي واقعات تلقفها بعضهم عن بعض ودونوها وقد سموها بالعلم الباطن، والحديث بإسناد إلى أبي يعقوب إسحق بن حية

قال: سمعت أحمد بن حنبل وقد سئل عن الوساوس والخطرات؟ فقال: ما تكلم فيها الصحابة ولا التابعون.

قال المصنف: وقد روينا في أول كتابنا هذا عن ذي النون نحو هذا، وروينا عن أحمد بن حنبل أنه سمع كلام الحارث المحاسبي فقال لصاحب له: لا أرى لك أن تجالسهم. وعن سعيد بن عمرو البردعي قال: شهدت أبا زرعة وسئل عن الحارث المحاسبي وكتبه؟ فقال للسائل: إياك وهذه الكتب، هذه الكتب كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر، فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب، قيل له: في هذه الكتب عبرة، قال: من لم يكن له في كتاب الله عز وجل عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة، بلغكم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي والأئمة المتقدمة صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء! هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم، يأتوننا مرة بالحارث المحاسبي، ومرة بعبد الرحيم الدبيلي، ومرة بحاتم الأصم، ومرة بشقيق، ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي نا أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: أول من تكلم في بلدته في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ذو النون المصري، فأنكر عليه ذلك عبد الله بن عبد الحكم وكان رئيس مصر، وكان يذهب مذهب مالك، وهجره لذلك علماء مصر لما شاع خبره أنه أحدث علما لم يتكلم فيه السلف، حتى رموه بالزندقة، قال السلمي: وأخرج أبو سليمان الداراني من دمشق، وقالوا أنه يزعم أنه يرى الملائكة وأنهم يكلمونه، وشهد قوم على أحمد بن أبي الحواري أنه يفضل الأولياء على الأنبياء فهرب من دمشق إلى مكة، وأنكر أهل بسطام على أبي يزيد البسطامي ما كان يقول، حتى أنه ذكر للحسين بن عيسى أنه يقول: لي معراج كما كان للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معراج، فأخرجوه من بسطام وأقام بمكة سنتين ثم رجع إلى جرجان فأقام بها إلى أن مات الحسين بن عيسى ثم رجع إلى بسطام، قال السلمي: وحكى رجل عن سهل بن عبد الله التستري أنه يقول: إن الملائكة والجن والشياطين يحضرونه، وإنه يتكلم عليهم، فأنكر ذلك عليه العوام حتى نسبوه إلى القبائح، فخرج إلى البصرة فمات بها، قال السلمي: وتكلم الحارث المحاسبي في شيء من الكلام والصفات فهجره أحمد بن حنبل فاختفى إلى أن مات.

قال المصنف: وقد ذكر أبو بكر الخلال في كتاب السنة عن أحمد بن حنبل أنه قال: حذروا من الحارث أشد التحذير، الحارث أصل البلية، يعني في حوادث كلام جهم ذاك، جالسه فلان وفلان وأخرجهم إلى رأي جهم، ما زال مأوى أصحاب الكلام، حارث بمنزلة الأسد المرابط أنظر أي يوم يثب على الناس.

فصل - قال المصنف: وقد كان أوائل الصوفية يقرون بأن التعويل على الكتاب والسنة، وإنما لبس الشيطان عليهم لقلة علمهم، وبإسناد عن جعفر الخلدي يقول: سمعت الجنيد يقول: قال أبو سليمان الداراني: قال ربما تقع في نفسي النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين

عدلين الكتاب والسنة، وبإسناد عن طيفور البسطامي يقول: سمعت موسى بن عيسى يقول: قال لي أبي: قال أبو يزيد: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود.

وبإسناد عن أبي موسى يقول: سمعت أبا يزيد البسطامي قال: من ترك قراءة القرآن والتقشف ولزوم الجماعة وحضور الجنائز وعيادة المرضى وادعى بهذا الشأن فهو مبتدع، وبإسناد عن عبد الحميد الجبلي يقول: سمعت سريا يقول: من ادعى باطن علم ينقض ظاهر حكم فهو غالط، وعن الجنيد أنه قال: مذهبنا هذا مقيد بالأصول الكتاب والسنة، وقال أيضا: علمنا منوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، ولم يتفقه، لا يقتدى به. وقال أيضا: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات، لأن التصوف من صفاء المعاملة مع الله سبحانه وتعالى، وأصله التفرق عن الدنيا، كما قال حارثة: عرفت نفسي في الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري. وعن أبي بكر الشفاف: من ضيع حدود الأمر والنهي في الظاهر حرم مشاهدة القلب في الباطن. وقال الحسين النوري لبعض أصحابه: من رأيته يدعي مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا تقربنه، ومن رأيته يدعي حالة لا يدل عليها دليل ولا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه على دينه. وعن الجريري قال: أمرنا هذا كله مجموع على فضل واحد، هو أن تلزم قلبك المراقبة، ويكون العلم على ظاهرك قائما. وعن أبي جعفر قال: من لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسنة، ولم يتهم خاطره، فلا تعده في ديوان الرجال.

فصل - قال المصنف: وإذ قد ثبت هذا من أقوال شيوخهم، ووقعت من بعض أشياخهم غلطات لبعدهم عن العلم، فإن كان ذلك صحيحا عنهم توجه الرد عليهم إذ لا محاباة في الحق، وإن لم يصح عنهم حذرنا من مثل هذا القول، وذلك المذهب من أي شخص صدر، فأما المشبهون بالقوم وليسوا منهم فأغلاطهم كثيرة، ونحن نذكر بعض ما بلغنا من أغلاط القوم، والله يعلم أننا لم نقصد ببيان غلط الغالط إلا تنزيه الشريعة والغيرة عليها من الدخل، وما علينا من القائل والفاعل، وإنما نؤدي بذلك أمانة العلم، وما زال العلماء يبين كل واحد منهم غلط صاحبه قصدا لبيان الحق لا لإظهار عيب الغالط، ولا اعتبار بقول جاهل يقول: كيف يرد على فلان الزاهد المتبرك به؟ لأن الانقياد إنما يكون إلى ما جاءت به الشريعة لا إلى الأشخاص، وقد يكون الرجل من الأولياء وأهل الجنة وله غلطات فلا تمنع منزلته بيان زلله.

واعلم أن من نظر إلى تعظيم شخص ولم ينظر بالدليل إلى ما صدر عنه، كان كمن ينظر إلى ما جرى على يد المسيح صلوات الله عليه من الأمور الخارقة ولم ينظر إليه فادعى فيه الإلهية، ولو نظر إليه وأنه لا يقوم إلا بالطعام، لم يعطه إلا ما يستحقه، وقد أخبرنا إسماعيل بن أحمد السمرقندي بإسناد إلى يحيى بن سعيد قال: سألت شعبة وسفيان بن سعيد وسفيان بن عيينة ومالك بن أنس عن الرجل لا يحفظ أو يتهم في الحديث، فقالوا جميعا: يبين أمره. وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يمدح

فقد عدَّ هذا اللقب مخصوصا بالموصوفين باتباع السنة ومباينة البدعة، وهذا دليل يناقض ما يعتقده الجهال ومن لا عبرة بهم من المدعين للعلم من أنهم متساهلون في البدع، وأن اختراع العبادات والتزام ما لم يأت في الشرع التزامه مما يقولون به ويعملون عليه، وحاشاهم من أن يعتقدوا ذلك أو يقولوا به.

وطريقهم إنما داخلتها المفاسد، وتطرقت إليها البدع من جهة قوم تأخرت أزمانهم عن عهد ذلك السلف الصالح، وادعوا الدخول فيها من غير سلوك شرعي ولا فهم لمقاصد أهلها، وتقوّلوا عليهم ما لم يقولوا به، وصاروا يرتكبون من الأعمال ما أجمع الناس على فساده شرعا، ويحتجون على ذلك بحكايات هي قضايا أحوال إن صحت لم تكن فيها حجة لوجوه عدة، وتركوا من كلامهم وأحوالهم ما هو واضح في الحق الصريح، والاتباع الصحيح، شأن من اتبع من الأدلة الشرعية ما تشابه منها، حتى أصبحت الطريق بسببهم في هذا الزمن الأخير كأنها شريعة أخرى غير ما أتى به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم[1].

الرجل ويبالغ، ثم يذكر غلطه في الشيء بعد الشيء، وقال: نعم الرجل فلان لولا أن خلة فيه، وقال عن سري السقطي: الشيخ المعروف بطيب المطعم، ثم حكى له عنه أنه قال أن الله عز وجل لما خلق الحروف سجدت الباء فقال: نفروا الناس عنه"، ثم صار رحمه الله تعالى يعدد أغلاط القوم فلتنظر هناك.

[1] صدقت رحمك الله.

وأعظم ذلك أنهم يتساهلون في اتباع السنة ويرون اختراع العبادات طريقا للتعبد صحيحا، ويرتبون عليها الثواب والعقاب، والرحمة والغضب، والقبول والطرد، وطريقة القوم بريئة من هذا الخبط والتجرؤ على الله تعالى والاستظهار على رسوله عليه السلام، ومنافية له تمام المنافاة، ولنذكر من كلامهم ما يبين حقيقة طريقتهم حتى يكون لنا دليلا من جهتهم على أولئك المبتدعين في طريقهم، المدعين أنهم جارون على نهجهم، ومقتفون لسنتهم.

قال إمام أئمة الصوفية على الإطلاق أبو القاسم الجنيد[1]: مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، وقال: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر

---

[1] ابن محمد بن الجنيد النهاوندي، ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يثني عليه، قال فيه: "كان من أئمة الهدى" الفرقان (ص64)، وله كلام رحمه الله تعالى في الفرق بين الإرادة الكونية والدينية ألزم به ابن تيمية الصوفية، فجعل من اتبع فيه الجنيد كان على السداد، ومن خالفه ضل، الفرقان (ص68). وله غير ذلك من الكلمات النفيسة، فهو القائل عن الصوفي: "الصوفي هو الذي سلم قلبه، كقلب إبراهيم من حب الدنيا، وصار بمنزلة الحامل لأوامر الله، وتسليمه تسليم إسماعيل، وحزنه حزن داود، وفقره فقر عيسى، وصبره صبر أيوب، وشوقه شوق موسى وقت المناجاة، وإخلاصه إخلاص محمد"، وهو القائل أيضا: "علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به"، وكان يقول: "علمنا (يعني التصوف) مشبك بحديث رسول الله" السير (14/ 66). قال فيه أبو نعيم: "كان كلامه بالنصوص مربوطا، وبيانه بالأدلة مبسوطا، فاق أشكاله بالبيان الشافي، واعتناقه للمنهج الكافي، ولزومه للعمل الوافي" الحلية (10/ 255)، وانظر "طبقات الصوفية" للسلمي (ص55)، "طبقات الأولياء" لابن الملقن (ص20)، "صفوة الصفوة" (2/ 416).

قلت ومع ذلك لم يسلم من الخطأ، فقد نقل عنه الباقلاني في الإنصاف (ص37) أنه قال: (في كلام له عن الله، يصفه قائلا: "جلت ذاته عن الحدود، وجل كلامه عن الحروف، فلا حد لذاته، ولا حروف كلامه")، وهذا قول رديء فيه نفي الحرف عن كلام الله عز وجل، وهو خلاف قول أهل السنة والجماعة، بل هو مذهب جماعة من أهل البدع.

الرسول صلى الله عليه وسلم. وقال من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، وقال: هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وسئل الحسن بن علي[1]: عن الطريق إلى الله، فقال: الطرق إلى الله كثيرة، وأوضح الطرق وأبعدها عن الشبه، اتباع السنة قولا وفعلا وعزما وعقدا ونية، لأن الله يقول: "وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا" النور 54، فقيل له كيف الطريق إلى السنة، فقال: مجانبة البدع، واتباع ما أجمع عليه الصدر الأول من علماء المسلمين، والتباعد عن مجالس الكلام وأهله، ولزوم طريقة الاقتداء، وبذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: "ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً" النحل 123. وقال أبو عثمان المغربي التونسي[2]: هي الوقوف مع الحدود لا يقصر فيها ولا يتعداها، قال الله تعالى: "وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهَّ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ" الطلاق 1. وقال سهل التستري[3]:

---

[1] هو أبو علي الحسن بن علي الجوزجاني من كبار مشايخ خراسان، وكلامه هذا أخذه المصنف من الإعتصام للشاطبي، إلا أنه في طبقات الصوفية: "أصح الطرق وأعمرها وأبعدها.."، وله كلمات أخرى نفيسة في التوحيد ولزوم السنة، فلتنظر في "طبقات الصوفية" للسلمي (ص196)، و"طبقات الأولياء" لابن الملقن (ص56).

[2] هو سعيد بن سلام وقيل ابن سالم القيرواني الصوفي، وكلامه هذا أخذه المصنف من "الاعتصام"، وهو القائل: "علوم الدقائق علوم الشياطين، وأسلم الطرق من الاغترار لزوم الشريعة"، والقائل: "الاعتكاف حفظ الجوارح تحت الأوامر"، ترجمته في "طبقات الصوفية" (ص358)، و"تاريخ بغداد" (9/ 112)، و"السير" (16/ 320)، و"طبقات الأولياء" (ص40).

[3] هو سهل بن عبد الله، أحد أئمة القوم وعلمائهم والمتكلمين في علوم الرياضات والإخلاص وعيوب الأفعال (طبقات الصوفية ص166)، وكلامه هذا في "الاعتصام"، ومن شطحاته ما نقله ابن الجوزي عن السلمي أن رجلا حكى عن سهل التستري أنه كان يقول: الملائكة والجن

أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق. وقال أبو القاسم النصر آبادي[1]: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك البدع والأهواء. وقال أبو الحسن الوراق[2]: لا يصل العبد إلى الله إلا بالله وبموافقة حبيبه صلى الله عليه وسلم في شرائعه، ومن جعل الطريق إلى الوصول في غير الاقتداء يضل من حيث أنه مهتد، وقال أبو القاسم

والشياطين يحضرونه، وإنه يتكلم عليهم، فأنكر ذلك عليه العوام حتى نسبوه إلى القبائح فخرج إلى البصرة (تلبيس إبليس ص150).

وأستبعد أن يكون التستري قد قال هذا الكلام، ويقوي هذا أنه عند إخضاع هذا النقل إلى ميزان النقد، ظهر ضعفه، فهذا النقل في طبقات الصوفية للسلمي، والسلمي هذا متهم بالوضع، قال الخطيب: (قال لي محمد بن يوسف القطان النيسابوري: كان أبو عبد الرحمن السلمي غير ثقة.. إلى أن قال: وكان يضع للصوفية الأحاديث) تاريخ بغداد (2/ 248)، الضعفاء لابن جوزي (3/ 52)، وقال الذهبي: تكلم فيه وما هو بالحجة. المغني في الضعفاء (2/ 571)، فإذا كان متهما بالوضع على النبي صلى الله عليه وسلم، فكيف يتورع عن الكذب على من هو دون النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إن الحكاية فيها عن رجل مبهم، والمبهم مجهول العدالة، فكيف بعد هذا يقبل هذا النقل؟

[1] هو إبراهيم بن محمد شيخ خراسان في وقته وكلامه هذا في "الاعتصام"، وقد نقله عنه ابن القيم في مدارج السالكين (3/ 119) (3/ 142)، وتمام المقولة "والاقتداء بالسلف، وترك ما أحدثه الآخرون، والإقامة على ما سلكه الأولون". قلت: ومن زلاته أنه كان ممن صححوا أقوال الحلاج كما ذكر الخطيب في تاريخه (8/ 112)، ونقله عنه ابن العماد في شذرات الذهب (2/ 253)، وابن تيمية في الفرقان (ص232)، حيث نقل عن أبي عبد الرحمن السلمي فيما أسنده عن محمد بن الحسين {قال}: (سمعت إبراهيم بن محمد النصر آبادي وعوتب في شيء حكي عن الحلاج في الروح، فقال للذي عاتبه: إن كان بعد النبيئين والصديقين موحد فهو الحلاج).

[2] الصواب أبو الحسين الوراق وهو محمد بن سعد النيسابوري من كبار المشايخ، وقدماء أصحاب أبي عثمان، مات قبل سنة 320 للهجرة، وكلامه هذا في الاعتصام، وقد نقل عنه ابن القيم في "إغاثة اللهفان"، ترجمته في "طبقات الصوفية" (ص229)، "طبقات الأولياء" (ص64).

السندوسي[1]: هذا الطريق مبني على الغيرة لله ولرسوله، فمن كان يعد نفسه في أعداد[2] أهل هذا الطريق وليس له غيرة على الله تعالى وعلى رسوله فهو (دجال)، والغيرة لله ولرسوله هي الغيرة على حرمة الأوامر الإلهية والنبوية أن تهتك، ومن رأيتموه ينتصر لأبيه وجده وشيخه على الأوامر الشرعية فهو منافق مبتدع فاجتنبوه ولا تخالطوه. وقال أبو حمزة البغدادي[3]: من علم طريق الحق سهل سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحواله وأفعاله وأقواله، وكان أبو النجيب السهروردي[4] يحافظ على الشريعة ويقول: هي الطريق وما عداها قواطع. وقال أبو يزيد

---

[1] لم أقف على ترجمته، وهو أحد الرجال الذين تسند عنهم الطريقة الرفاعية، أخذ عن رويم البغدادي، كما في "التصوف المنشأ والمصادر" لإحسان إلهي ظهير (ص157).

[2] لعل الصواب في عداد.

[3] هو محمد بن إبراهيم البزاز، مات قبل الجنيد وكان من أقرانه، كان عالما بالقراءات فقيها، وكان كثير الرباط والغزو (السير 13/ 165)، ونقل القشيري في الرسالة أن أحمد بن حنبل كان يقول له في المسائل: ما تقول فيها يا صوفي؟ (الرسالة ص23)، وهو صاحب قصة البشر، ذكرها الخطيب في "تاريخ بغداد"، ونقلها عنه ابن الجوزي في "تلبيس إبليس"، وقد خطؤوه في صنيعه، وقد نقل عنه ابن تيمية في الاستقامة (ص97-250)، وترجمته في "طبقات الصوفية" (ص88)، والسير (13/ 165).

[4] هو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد البكري الصديقي عم أبي حفص السهروردي صاحب "عوارف المعارف"، ولد سنة 490هـ، كان فقيها شافعيا واعظا من أئمة المتصوفة (أعلام الزركلي (4/ 49))، وصفه الذهبي بالقدوة، لكن أثرت عنه كلمات قبيحة، كان يقول عن الأولياء يسميهم إخوان التجريد، يتعلمون العلم من روح القدس بلا تعلم بشري، وتطيعهم مادة العالم العنصري، وينذرون الكون ويخبرونه بالجزئيات الواقعة في الماضي والمستقبل" اهـ التصوف النشأة والتطور (ص66)، ترجمته في تاريخ دمشق (67/ 262)، طبقات الشافعية للسبكي (7/ 175)، والمعين في طبقات المحدثين للذهبي (ص51)، وفيات الأعيان (3/ 204)، السير (20/ 475)، لسان الميزان (4/ 54).

البسطامي[1]: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وآداب الشريعة. وقال أبو بكر الطمستاني[2]: الطريق واضح والكتاب والسنة قائمان بين أظهرنا وفضل الصحابة معلوم لسبقهم إلى الهجرة ولصحبتهم، فمن صحب منا الكتاب والسنة وهاجر بقلبه إلى الله فهو الصادق المصيب. وقال أبو حفص الحداد[3]: من لم يزن أفعاله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره، فلا

---

[1] أبو يزيد البسطامي الأكبر، هو طيفور بن عيسى بن سروشان، وصفه الذهبي "بسلطان العارفين، وقال: له كلام نافع".

قلت: وقد نقل ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص150) "أن أهل بسطام أنكروا عليه ما كان يقول حتى إنه ذكر للحسين بن عيسى أنه يقول: لي معراج كما كان للنبي صلى الله عليه وسلم معراج، فأخرجوه من بسطام"، وأتباعه يعرفون بالطيفورية أو البسطامية، وفي المستشرقين من يرى أنه كان يقوا بوحدة الوجود، وأنه ربما كان أول قائل بمذهب الفناء. الأعلام للزركلي (3/ 232). وقد أفرط أبو نعيم في وصفه في الحلية، وقال الذهبي في الميزان (2/ 347) عن السلمي أنه قال: وقد نقلوا عن أبي يزيد أشياء الشك في صحتها عنه، منها: "سبحاني"، "وما في الجبة إلا الله"، "وما النار! لأستندن إليها غدا، وأقول: اجعلني لأهلها فداء، ولأبلعنها، ما الجنة إلا لعبة صبيان!، هب هؤلاء اليهود، ما هؤلاء حتى تعذبهم!"، ومن الناس من يصحح هذا عنه، ويقول قاله في حال سكر" اهـ. ترجمته "طبقات الصوفية" (ص35)، "حلية الأولياء" (10/ 33)، الإكمال لابن ماكولا (7/ 144)، "السير" (13/ 86)، طبقات الأولياء (ص66).

[2] أبو بكر الطمستاني الفارسي من كبار شيوخ الطائفة، وكلامه هذا في الاعتصام، وهو في حلية الأولياء (10/ 382)، وفي مدارج السالكين (2/ 467). ترجمته في "طبقات الصوفية" (1/ 352)، و"حلية الأولياء" (10/ 382)، "الرسالة القشيرية" (ص28)، "تاريخ الإسلام" للذهبي (25/ 483)، "طبقات الأولياء" لابن الملقن (ص59).

[3] أبو حفص الحداد هو عمر بن مسلمة، أو عمرو بن سلمة، وكان صاحبا للحلاج، يقال هو أول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور، وقد وصفه الذهبي في تذكرة الحفاظ (2/ 110) بشيخ الصوفية، وبالإمام القدوة الرباني (السير 12/ 510)، وكلامه هذا في "الإعتصام"، وهو في "الرسالة القشيرية" (ص16)، ترجمته في "طبقات الأولياء" (ص41)، "تاريخ علماء الأندلس" (1/ 121)، "تاريخ بغداد" (12/ 220)، وفي ترجمته أشياء في النفس منها شيء.

تعده في ديوان الرجال. وقال رجل لرويم البغدادي[1]: دلني على الطريق، فقال

---

[1] رويم البغدادي الصغير، هو رويم بن أحمد الشيباني أبو محمد صوفي مفسر مقرئ فقيه على مذهب داود الظاهري، ترجمته "طبقات الصوفية" (ص147)، و"صفوة الصفوة" (2/ 442)، "السير" (14/ 234)، "طبقات الأولياء" (ص39)، "معجم المؤلفين" (4/ 176).

قلت: ومن شطحاته ما نقله الذهبي في السير (14/ 234) "أنه امتحن في نوبة غلام خليل وقال عنه: أنا سمعته، يقول: ليس بيني وبين الله حجاب، ففر إلى الشام واختفى زمانا" اهـ، وقد اعتذر له الذهبي وخرّج قوله هذا على تخريج ينظر هناك.

قلت: وتخريج الذهبي لكلام رويم هذا واعتذاره له إنما هو حسن ظن، وإلا فإن الحكاية قد تكون باطلة من أصلها إذ إن راويها غلام خليل رجل معروف بالوضع والكذب، "قال عنه أبو بكر الصبغي: لا أشك في كذبه" السير (13/ 283)، وقال أبو داود: إنه كان دجال بغداد، وقال الدارقطني: متروك، الضعفاء (ص3). وكذبه إسماعيل القاضي في قصة، لسان الميزان (1/ 273). وقال الحافظ في "اللسان" (1/ 445): "وغلام خليل كما تقدم مجمع على تكذيبه".

ومن كان هذا حاله فلا يؤتمن على مثل هذه الحكاية وخصوصا أنه كان ناقما على الصوفية، فمن ذلك ما ذكره عنه ابن الأعرابي قال: "قدم من واسط غلام خليل فذكرت له هذه الشناعات –يعني خوض الصوفية ودقائق الأحوال التي يذمها أهل الأثر– وذكر له قولهم بالمحبة، ويبلغه قول بعضهم: نحن نحب ربنا ويحبنا، فأسقط عنا خوفه بغلبة حبه، فكان ينكر هذا الخطأ بخطأ أغلظ منه حتى جعل محبة الله بدعة، وكان يقول الخوف أولى بنا، وليس كما توهم بل المحبة والخوف أصلان لا يخلو المؤمن منهما، فلم يزل يقص بهم ويحذر منهم ويغري بهم السلطان والعامة، ويقول: كان عندنا بالبصرة قوم يقولون بالحلول، وقوم يقولون بالإباحة، وقوم يقولون كذا، فانتشر في الأفواه أن ببغداد قوما يقولون بالزندقة، وكانت تميل إليه والدة الموفق، وكذلك الدولة والعوام، لزهده وتقشفه، فأمرت المحتسب أن يطيع غلام خليل، فطلب القوم وبث الأعوان في طلبهم وكتبوا فكانوا نيفا وسبعين نفسا، فاختفى بعضهم وبعضهم خلصته العامة، وحبس منهم جماعة مدة، وهرب النوري إلى الرقة" السير (13/ 283). وقال أبو نعيم: سمعت عمر البناء البغدادي بمكة يحكي محنة غلام خليل، قال: نسبوا الصوفية إلى الزندقة، فأمر الخليفة المعتمد في سنة 264 بالقبض عليهم، فأخذ في جملتهم النوري، فأدخلوا على الخليفة، فأمر بضرب أعناقهم، فبادر النوري إلى السياف، فقيل له في ذلك، فقال: آثرت حياتهم على نفسي ساعة، فتوقف السياف عن قتله، ورفع أمره إلى الخليفة فرد الخليفة أمرهم إلى قاضي القضاة إسماعيل بن إسحاق فسأل أبا الحسن النوري عن مسائل في العبادات، فأجاب، ثم قال: وبعد هذا، لله عباد يسمعون بالله ، وينظرون بالله، ويصدرون بالله، ويردون بالله، ويأكلون بالله، ويلبسون بالله، فلما سمع

له: ليس لك إلا بذل الروح، وإلا فلا تشتغل بترهات المتصوفة. وقال أبو يعقوب النهرجوري[1] لرجل سأله عن الطريق: استعمل العلم ودوام الذكر وأنت إذا من أهل الطريق. وقال أبو الحسين النووي[2]: من رأيته يدعي مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربن منه. وقال أحمد بن أبي الحواري[3]: من عمل عملا بلا اتباع سنة فباطل عمله. وقال أبو سليمان

إسماعيل كلامه بكى بكاء طويلا، ثم دخل على الخليفة فقال: إن كان هؤلاء القوم زنادقة فليس في الأرض موحد، فأمر بتخليتهم" "الحلية" (10/ 250)، و"تاريخ بغداد" (5/ 133).

[1] هو إسحاق بن محمد من علماء الصوفية، "الأعلام" للزركلي (1/ 296)، و"حلية الأولياء" (10/ 356)، و"طبقات الصوفية" (ص286)، و"السير" (15/ 232)، "طبقات الأولياء" (ص17)، وقد نقل عنه ابن تيمية في "الاستقامة"، وابن القيم في "المدارج".

[2] الصواب أبو الحسين النوري، وهو أحمد بن محمد ويقال: محمد بن محمد، يعرف بابن البغوي، "البداية والنهاية" لابن كثير (11/ 119)، قال عنه الخطيب: "شيخ الصوفية في وقته، كان مذكورا بكثرة الاجتهاد وحسن العبادة"، وكلامه هذا نقله المصنف من "الاعتصام"، وهو في "السير" (14/ 72)، وفي الفرقان (ص92)، وفي "إغاثة اللهفان" (1/ 125)، وأكثر النقل عنه ابن تيمية في الاستقامة، وهو القائل: "كان الله ولا أين، والمخلوقات في عدم، فكان حيث هو، وهو الآن حيث كان، إذ لا أين ولا مكان" (شرح الحكم لابن عجيبة (ص35))، قلت: ومفاد هذا الكلام نفي استواء الله تعالى على عرشه، وهذا حال القوم إذا غاب عنهم العلم الصحيح وقعوا في الشطحات والضلالات، وله كلام في الفناء يومئ إلى الاتحاد، وقد استشنعه الذهبي في "السير" (14/ 72). ترجمته "طبقات الصوفية" (ص135)، "تاريخ بغداد" (5/ 130)، "صفة الصفوة" (2/ 439)،

[3] هو أحمد بن عبد الله أبو العباس وقيل أبو الحسن الدمشقي، كان أبو حاتم يثني عليه ويطنب، وقال يحيى بن معين: "أهل الشام يمطرون به" (الجرح والتعديل (2/ 47))، وقال ابن تيمية عنه: "كان من أتبع المشايخ للسنة" (الفتاوى (10/ 694))، وكلامه هذا نقله المصنف من الاعتصام، وهو في "الاستقامة" لابن تيمية.

قلت: ومن شطحاته أنه كان يفضل الأولياء على الأنبياء، شهد عليه قوم بذلك فهرب من دمشق (تلبيس إبليس (ص150))، ترجمته في "الثقات" لابن حبان (8/ 24)، "طبقات الصوفية"

الداراني[1]: ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة. وقال أبو العباس بن عطاء[2] (وهو من أقران الجنيد): من ألزم نفسه آداب الله نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم في أوامره وأفعاله وأخلاقه. وقال محمد بن الفضل البلخي[3]: أعرفهم بالله أشدهم مجاهدة في أوامره، واتباعهم

(ص91)، "حلية الأولياء" (10/ 5)، وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (1/ 76)، "طبقات الأولياء" (ص5).

[1] هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، الإمام الكبير، زاهد العصر، والداراني نسبة إلى داريّا بتشديد الياء، وكلامه في الاعتصام، وقد نقل عنه ابن القيم في "المدارج"، ومن شطحاته ما نقله ابن الجوزي عن السلمي أن أبا سليمان الداراني أخرج من دمشق وقالوا إنه يزعم أنه يرى الملائكة وأنهم يكلمونه (تلبيس إبليس (ص150))، وله شطحة أخرى ذكرها ابن تيمية في الفتاوى (10/ 694)، واعتذر عنه فيها وأثنى عليه قائلا: "إن الشيخ أبا سليمان من أجلاء المشايخ وساداتهم ومن أتبعه للشريعة"، ترجمته في "الثقات" لابن حبان (8/ 376)، "حلية الأولياء" (9/ 254)، "طبقات الصوفية" (ص74)، "صفة الصفوة" (4/ 223)، "طبقات الأولياء" (ص64)، "السير" (10/ 182).

[2] هو أحمد بن محمد بن سهل الآدمي الصوفي، قال عنه الخطيب في تاريخه (5/ 27): "كان أحد شيوخهم الموصوفين بالعبادة والاجتهاد، وكثرة الدرس للقرآن، وفي سير الأعلام النبلاء (14/ 328) قصة فيها أنه وافق الحلاج في مقالة كفر قالها تفيد القول بالجمع والاتحاد، فعرض للقتل فلم يقتلوه واكتفوا بتعزيره، وفي لسان الميزان (2/ 315) "سئل ابن عطاء عن مقالة الحلاج، فقال بمقالته"، وقال الخطيب في تاريخه (8/ 112) "والصوفية مختلفون فيه {أي الحلاج} فأكثرهم نفى أن يكون الحلاج منهم، وقبله أبو العباس بن عطاء و.." ("شذرات الذهب" (2/ 253))، ترجمته في "طبقات الصوفية" (ص207)، و"صفة الصفوة" (2/ 444)، و"طبقات الأولياء" (ص9).

[3] هو محمد بن الفضل بن العباس بن حفص البلخي بن عبد الله، من أكابر مشايخ خراسان وجلتهم، وكلامه هذا نقله المصنف من الاعتصام، وهو أيضا في الفتاوى (11/ 585-595)، وفي "مدارج السالكين" (2/ 465)، ترجمته في "طبقات الصوفية" (ص171)، "صفة الصفوة"

لسنة نبيه. وكان الإمام عبد القادر الجيلاني[1] يطلب علم الشريعة ويقول: هذا

(4/ 165)، "سير أعلام النبلاء" (14/ 524)، "طبقات الأولياء" (ص51)، "معجم المؤلفين" (11/ 128).

[1] هو عبد القادر الجيلاني بن أبي صالح الجيلي، وإليه تنسب الطائفة القادرية، كان فقيها حنبليا، وله مواقف عقدية حسنة في الاستواء وغيره، ذكرت في كتابه "الغنية"، وقد نقل عنه ابن تيمية في الفتاوى، وابن القيم في "اجتماع الجيوش الإسلامية"، نقل من كتابه "تحفة المتقين وسبيل العارفين"، ووصفه في "طريق الهجرتين" (1/ 67): بشيخ العارفين في وقته، ومما استنكر عليه قوله: "قدمي هذه على رقبة كل ولي لله". قلت: وقد استبعد الشيخ العالم تقي الدين الهلالي أن يكون الشيخ عبد القادر الجيلاني قال هذا، "الهدية الهادية" (ص69)، واعتذر عنه الحافظ ابن حجر، فقد سئل عن قوله هذا فأجاب: وأما المقالة التي نقلت عنه، فإن ثبت أنه قالها فليست على إطلاقها بل هي مقيدة بأهل عصره، والمراد بالقدم الطريقة، ولا شك أن طريقته بالنسبة لمن كان في عصره أمثل الطرق، ولأنه كان متحققا بالعلم والعمل، متصفا باتباع طريقة السلف الصالح من الصحابة والتابعين في الاعتقاد، ومن نقل عنه خلاف ذلك لم يقبل منه "الإمتاع بالأربعين المتباينة للسماع" (ص99).

قلت: أما عن مصدر هذه المقالة ونسبتها، فقد صرح السرهندي بأن السهروردي سمعها من عبد القادر نفسه إذ كان مصاحبا له، كما في "المكتوبات الربانية" للسرهندي (ص350)، و"نور الإنصاف في كشف ظلمة الخلاف" (ص29)، وقلادة الجواهر (ص113)، و"ضوء الشمس في قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس" (ص133)، وكلها للصياد الرفاعي، و"جامع كرامات الأولياء (1/ 293)، نقلا عن موسوعة "الرد على الصوفية" (68/ 48)، كما نسبها إليه نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف اللخمي الشافعي، المعروف بابن جهضم في كتابه "بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب السادة الأخيار من المشايخ الأبرار"، ألفه في حدود سنة 660هـ، وجعله على أحد وأربعين فصلا، الأول في مناقب الشيخ عبد القادر، ألفه لما سئل عن قول شيخه "قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، "كشف الظنون" (ص256).

قلت: وابن جهضم هذا متهم في نفسه، قال عنه الذهبي: ليس بثقة، بل متهم يأتي بمصائب (السير 17/ 275) (لسان الميزان 4/ 238)، وقال بن خيرون: تكلم فيه. أقول: وما دام هذا شأنه فلا يستبعد أن تكون هذه المقولة التي نسبها إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني قد اختلقها عليه.

وكتابه ذلك، قال فيه ابن حجر إنه ذكر فيه غرائب وعجائب، وطعن الناس في كثير من حكاياته وأسانيده (الأعلام 5/ 34)، وقال الذهبي عنه: أتى فيه بمصائب يشهد القلب ببطلانها (لسان الميزان 4/ 238، والأعلام 4/ 304).

هو السلوك. وقال ابن المنير[1]: يستحيل أن تكون الولاية شيئا غير الاستقامة، قال تعالى: "فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ"، وقال أبو العباس أحمد الرفاعي[2]: طريقنا

وأما أبو حفص السهروري فإنه عد قوله هذا من شطحات الشيوخ التي لا يقتدى بهم فيها، كما في "عوارف المعارف" له، نقلا عن المقصد الأرشد لابن مفلح (2/ 151)، وذيل "طبقات الحنابلة" (ص120). وهو القائل إن صح عنه: "من استغاث بي في كربة كشفت عنه، ومن ناداني في شدة فرجت عنه، ومن توسل بي في حاجة قضيت له...، قال عنه الذهبي: وفي الجملة الشيخ عبد القادر كبير الشأن وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه والله الموعد، وبعض ذلك مكذوب عليه.
وقال عنه الحافظ ابن كثير: كان له سمت حسن وصمت، غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان فيه زهد كثير، وله أحوال صالحة ومكاشفات، ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات، ويذكرون عنه أقولا وأفعالا ومكاشفات أكثر مغالاة، وقد كان صالحا ورعا، وقد صنف كتاب "الغنية" و"فتوح الغيب" وفيها أشياء حسنة.
وذكر فيها أحاديث ضعيفة وموضوعة، وبالجملة كان من سادات المشايخ.
وقال فيه ابن الجوزي: وكان قد صنف كتابا في الرد عليه، وللشيخ عبد القادر رحمه الله كلام حسن في التوحيد والصفات والقدر وفي علوم المعرفة موافق للسنة...

[1] لم أهتد إلى صاحب هذه المقولة.

[2] أبو العباس الرفاعي هو أحمد بن أبي الحسن بن علي بن يحيى الرفاعي الحسيني المغربي ثم البطائحي، مؤسس الطريقة الرفاعية، ولد في قرية حسن من أعمال واسط بالعراق، وتفقه وتأدب في واسط، وتصوف، فانضم إليه خلق كثير من الفقراء، كان لهم به اعتقاد كبير، وكان يسكن قرية أم عبيد بالبطائح، بين واسط والبصرة، وتوفي بها، وقبره إلى الآن محط الرحال لسالكي طريقته، "الأعلام" (1/ 174)، كذا قال الزركلي، والذي قرره الذهبي في السير (1/ 77): "أن أباه قدم به من المغرب وسكن البطائح بقرية أم عبيد"، قال فيه الذهبي: "الإمام، القدوة، العابد، الزاهد، شيخ العارفين"، قال ابن خلكان في "وفيات الأعيان" (1/ 171): "كان رجلا صالحا شافعيا، فقيها، انضم إليه خلق من الفقراء، وأحسنوا فيه الاعتقاد، وهم الطائفة الرفاعية، ويقال لهم الأحمدية، والبطائحية، ولهم أحوال عجيبة من أكل الحيات حية، والنزول إلى التنانير وهي تضرم نارا، والدخول إلى الأفرنة، وينام الواحد منهم في جانب الفرن والخباز يخبز في الجانب الآخر..". وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (11/ 494): "ليس هذا من شعار أحد من الصالحين، لا من الصحابة ولا من التابعين، ولا من شيوخ المسلمين، لا المتقدمين ولا المتأخرين، ولا الشيخ أحمد بن الرفاعي، ولا غيره، وإنما ابتدع هذا بعد موت الشيخ أحمد بمدة طويلة، ابتدعته طائفة انتسبت إليه، فخالفوا طريق المسلمين، وخرجوا عن حقائق الدين، وفارقوا طريق عباد الله الصالحين، وهم نوعان: أهل حال إبليسي، وأهل محال تلبيسي..". ترجمته

الكتاب والسنة. إلا أن الفقير على الطريق ما دام على السنة. فمتى انحرف عنها ضل عن الطريق، طريقنا أن لا تسأل ولا ترد وأن تتحقق أن الكل بيد الله وكل ميسر لما خلق له، وأن تقف عند حد الشرع ولا تتعداه، هذا الطريق واضح، أغلق منهاجه جماعة اضطرب عليهم الحال وما بلغوا مقام التمكين فتجاوزوا بالشطح والدعوى الحدود، فتبعهم فريقان، فريق انقاد بحسن الظن، وفريق قاده الجهل، وكلاهما على شفا جرف، إلا أن الطريق محجة بيضاء، كل ما فيه من قول أو فعل بطن أو ظهر لا يتجاوز دائرة الشرع، إلا أن كل طريق خالفت الشرع زندقة، الطريق أن تقول آمنت بالله، ووقفت عند حدود الله، وعظمت ما عظم الله، وانتهيت عما نهى الله عنه، ولا طريق بعد هذا أبدا، إذ ليس بعد الحق إلا الضلال. وقال سيدي عبد العزيز الدباغ[1]: من يدعي الوصول بغير

في "طبقات الشافعية" للسبكي (6/ 23)، ولابن قاضي شهبة (2/ 5)، و"طبقات الأولياء" (1/ 15).

[1] هو عبد العزيز بن مسعود الدباغ -نسبة إلى إحدى قرى دمشق- الصوفي صاحب كتاب "الإبريز" في التصوف، جمعه له تلميذه أحمد بن مبارك السجلماسي، ولد سنة 1090هـ وتوفي سنة 1132هـ، "معجم المؤلفين" (5/ 262)، وهو من الأشراف الحسينيين، مولده ووفاته بفاس، وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب، "الأعلام" للزركلي (4/ 28)، صاحب الطوام، والبلايا العظام، التي لا يتسع لحصرها المقام، فهو القائل: "ينزل الملك على الولي بالأمر والنهي"، والقائل: "إن المتصوفة لا يعرفون الغيب فحسب، بل يعرفون الغيوب الخمسة، التي ذكرها الله تعالى في محكم كتابه"، والقائل: "إن روح الولي تقدر على أن تخرج من ذات الولي، وتتصور بصورة غير صورته" "..."، "..." إلى آخر ما قاله.

يقول الشيخ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي عن كتاب الإبريز: "كتاب الإبريز الذي ألفه أحمد بن مبارك اللمطي في مناقب شيخه عبد العزيز الدباغ وحشاه بالكذب وهو مضاد لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.." "الهدية الهادية" (ص178).

الشريعة فهو كاذب، فإنه لا وصول إلا بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولا باب ندخل منه عليه إلا شريعته، فمن حاد عنها فقد انقطع عن الله تعالى وعن رسوله ، وقال أيضا: إذا أردتم الشيخ المسلك فاطلبوه من رجال السنة، ولا تخطوهم إلى أهل البدع والأهواء. وسئل أبو علي الروزبادي[1] عمن يسمع الملاهي ويقول هي لي حلال، لأني وصلت إلى درجة لا يؤثر في اختلاف الأحوال، فقال: نعم قد وصل ولكن إلى سقر.

وأحمد بن مبارك اللمطي عنده أشياء تستنكر، قال الزركلي في الأعلام (1/ 201)، وفي العلماء من أنكر عليه بعض أقواله.

قلت: وقد يكون هذا الذي ينقله عن شيخه الدباغ مما أنكر عليه.

قال العلامة تقي الدين الهلالي: "وهذا الرجل أحمد بن المبارك اللمطي السجلماسي من كبار علماء وقته في مدينة فاس في القرن الثاني عشر للهجرة، وقد حمله حب الشهرة أن اتخذ رجلاً من آل البيت اسمه عبد العزيز الدباغ، كان يعد من الصالحين وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، اتخذه شيخا ونسب إليه أجوبة كثيرة عن معاني الآيات والأحاديث لا يتسع المقام لذكرها، وزعم أنه كان يقرأ اللوح المحفوظ، ويجيب عن كل ما يُسأل عنه، وهذا يدل على ذهاب العلم والعلماء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس بعد أن أعطاهموه وإنما يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا".

ولعل المصنف ذكره هنا في جملة المتصوفة السنيين اغترارا بهذه الكلمة المنقولة عنه، ولعله لم يطلع على كتاب "الإبريز"، ولو اطلع عليه ورأى ما فيه لما نقل عنه وما ذكره، في هؤلاء، هذا إن صح ما ذكر عنه.

[1] الصواب أبو علي الروذباري، وهو أحمد بن محمد بن مقسم، أو بن القاسم، وصحح هذا السلمي. تفقه على ابن سريج الشافعي وأخذ الأدب عن ثعلب والحديث عن إبراهيم الحربي والتصوف عن الجنيد، وكلامه هذا نقله المصنف من الاعتصام، وهو في "حلية الأولياء" (10/ 356)، وفي "طبقات الصوفية" (ص271). ترجمته في "صفوة الصفوة" (2/ 454)، "السير" (14/ 335)، "طبقات الأولياء" (ص8).

قلت: وهناك روذباري آخر وهو أيضا من شيوخ الصوفية واسمه أحمد بن عطاء، وكنيته أبو عبد الله، ذكرته حتى لا يختلط بالأول، والمقولة منسوبة إلى الأول.

إلى غير هذا مما يطول ذكره ويستدعي نقله زمانا طويلا ويستغرق كتابا بأسره، فتبين مما ذكرناه أن الصوفية مجمعون على تعظيم الشريعة مقيمون على متابعة السنة، غير مخلين بشيء من آدابها، أبعد الناس عن البدع وأهلها، ولذلك لا تكاد تجد أحدا منهم ينسب إلى فرقة من الفرق الضالة أو يميل إلى خلاف السنة، قال أبو إسحاق الشاطبي[1] في كتابه الاعتصام: وأكثر من ذكر منهم علماء وفقهاء ومحدثون، وممن يؤخذ عنهم الدين أصولا وفروعا. ومن لم يكن كذلك فلا بد له أن يكون فقيها في دينه بمقدار كفايته.

وبالجملة فطريق القوم المسلوك مبني على ملازمة الكتاب والسنة، وترك البدع والأهواء، ومعاداة مرتكبيها، وتربية الإرادة، وحسن النية، والإخلاص في العمل، وحب التهجد، وملازمة الذكر، والصمت عن اللغو، والزهد فيما في أيدي الناس، والإرشاد إلى الطريق المستقيم. وغايته منها الوصول إلى تجريد التوحيد وكمال المعرفة بالله تعالى.

---

[1] أبو إسحاق الشاطبي هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، أصولي حافظ من أهل غرناطة، كان من أئمة المالكية، توفي سنة ٧٩٠هـ، له "الموافقات" في أصول الفقه، و"الاعتصام"، و"الفتاوى"، و"الإفادات والإنشادات" في الأدبيات والملح، و"شرح ألفية ابن مالك" النحوية. "فهرس الفهارس" (١/ ١٩١) بزيادة.

وهبني قلت هذا الصبح ليل * أيعمى العالمون عن الضياء؟[1]

"لا وربك"

هي الشمس لا تخفى على كل مبصر * سوى مقلة عمياء أو أعين رمد[2]

ولكن قد ادّعى حالهم غشا وتلبيسا أقوام ليسوا منهم في شيء ولبسوا لباسهم وخرجوا عن الحدود واستبدلوا البدعة بالسنة واتخذوا الطريق وسيلة معاشية وتركوا الشرع بهوى النفس "وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ"، وصاروا يأمرون الناس بالبدع ويقرونهم عليها وينسبون ذلك إلى طريق الصوفية التي طالما حاولوا التشبه بأهلها وحلول محلهم فيها فيها على حد قول الشاعر الحكيم.

إذا غاب ملامح السفينة وارتمت * بها الريح يوما دبرتها الضفادع[3].

---

[1] البيت للمتنبي.

[2] البيت من قصيدة طويلة لضياء الدين أبي العباس القرطبي في نصرة أبي الحسن الأشعري، رد بها على هاج هجا الأشعرية، وقد بعث بها إلى الإمام ابن دقيق العيد، وكان هذا أشعريا، فقرظها له. "طبقات الشافعية" للسبكي (3/ 429).

قلت: ولا أعتقد أن البيت من قوله لوجود تغيير في صدره.

[3] لم أعرف قائله، وهو في الاستقصاء للناصري (6/ 67)، وفي "الحركة السنوسية" (ص170).

سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ

فـما أجـدر هـؤلاء بالتـشديد علـيهم في الإنكـار وإسـقاطهم في الإنكـار وإسقاطهم جميعا من حيز الاعتبار، حتى يعلم سائر الناس أنهم ليسوا من أهل الطريق الموصلة إلى الله، وإنما هم يعينـون الشياطين (لعنهم الله)، ولا يدنـسوا رجالا دعوا إلى الله تعالى وأقاموا أنفسهم في وظيفـة تطهير القلـوب وتهـذيب النفوس وتصفية الخواطر وتهيئة الرجال للكمالات.

أولئك قوم لم يكونوا أشابـة ❊ وهـل يُعِظُّ الضِّلِّيلُ إلا أولائكَا[1]

❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊

كـل إمـام مقتـد ذو سنـة ❊ كالسيف مسلولا على الشيطان[2]

فلقد كانوا أساتذة مدرسة دينية لا يوجد لها مثيل في العالم، إذ كان الواحد منهم عند ما يلقن المريد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) يشرح له معناها، فيبين له صفات الله تعالى الواجبة له والجائزة في حقه والمستحيلة عليه كما يبين له

---

[1] البيت لابن السكيت كما في "الصحاح" للجوهري (1/ 19)، و"لسان العرب" (15/ 364)، وللفراء كما في "الصاحبي" لابن فارس (1/ 6)، ويروى: أولالك القوم❊❊إلا أولالك.

[2] هذا البيت من قصيدة طويلة في مباحث عقدية لتاج الدين السبكي، ذكرها في كتابه "طبقات الشافعية" (3/ 383).

صفات الرسل الواجبة والمستحيلة والجائزة[1] التي احتوت عليها الشهادتان ثم يدله على المقصود من التوحيد والتنزيه منشدا قول القائل:

حرام على من وحد الله ربّه * وأفرده أن يجتدي أحدا رفدا[2]

ثم يبين له كيفية الوضوء والغسل وما يتعلق بهما، ثم يبين له كيفية الصلاة وترتيب العبادات، ثم يعلمه الآداب اللازمة فيوقفه على ما يعامل به إخوانه وأهله وجيرانه، وما يعامل به من يغايره في الدين، وما يعامل به الحيوان، ثم يعرفه فضيلة الكسب والسعي على العيال، ورذيلة التكفف وسؤال الناس، ولا يأمره بالقعود عن الكسب والخروج عن المال والانقطاع إلى الزوايا، وحضور السماع ومجالس الذكر الجهري كما عليه الكثير من المتصوفين، لأن ذلك[3] غير منزل على الدليل الشرعي ولا جار على أحوال الصحابة والتابعين،

---

[1] هذا التقسيم إنما يعرف لأهل الكلام ولم يكن عند السلف.

[2] لم أقف على قائله، وهو من شواهد "شرح الحكم العطائية" لابن عجيبة (ص96).

[3] (هذه الإحالة للشيخ مكي الناصري في أصل الكتاب) قال أبو إسحاق الشاطبي في الاعتصام: وما تعلقوا به من الصفة التي كانت في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتمع فيها فقراء المهاجرين فهو من الأمور التي جرت عند الكثير من الناس غير محققة ولا منزلة على الدليل الشرعي ولا على أحوال الصحابة والتابعين. ولا بد من بسط طرف من الكلام في هذه المسألة بحول الله تعالى، حتى يتبين الحق فيها لمن أنصف ولم يغالط نفسه وبالله التوفيق. وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة كانت الهجرة واجبة على كل مؤمن بالله ممن كان في مكة أو غيرها. فكان منهم من احتال على نفسه فهاجر بماله أو شيء منه. فاستعان به لما قدم المدينة في حرفته التي كان يحترف من تجارة أو غيرها، كأبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه هاجر بجميع ماله وكان خمسة آلاف. ومنهم من فرَّ بنفسه ولم يقدر على استخلاص شيء من ماله فقدم المدينة صفر اليدين، وكان الغالب على أهل المدينة العمل في حوائطهم وأموالهم بأنفسهم فلم يكن لغيرهم معهم كبير فضل في العمل. وكان من المهاجرين من أشركهم الأنصار في أموالهم وهم الأكثرون. ومنهم من كان يلتقط نوى التمر فيرضها ويبيعها علفا للإبل...، ومنهم من لم يجد

وجها يكتسب به لقوت ولا لسكنى، فجمعهم النبي صلى الله عليه وسلم في صُفَّة كانت في مسجده وهي سقيفة كانت من جملته، إليها يأوون، وفيها يقعدون، إذ لم يجدوا مالا ولا أهلا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحض الناس على إعانتهم والإحسان إليهم، وقد وصفهم أبو هريرة رضي الله تعالى عنه إذ كان من جملتهم، وهو أعرف الناس بهم، قال في الصحيح: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته -يعني النبي صلى الله عليه وسلم- صدقة بعث بها إليهم، ولا يتناول منها شيئا. وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. فوصفهم بأنهم أضياف الإسلام وحكم لهم -كما ترى- بحكم الأضياف. وإنما وجبت الضيافة في الجملة لأن من نزل بالبادية لا يجد منزلا ولا طعاما لشراء، إذ لم يكن لأهل الوبر أسواق ينال منها ما يحتاج إليه من طعام يشتري، ولا خانات يأوي إليها. فصار الضيف مضطرا وإن كان ذا مال فوجب على أهل الموضع ضيافته وإيواؤه حتى يرتحل، فإن كان لا مال عنده فذلك أحرى. فكذلك أهل الصفة لما لم يجدوا منزلا آواهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد حتى يجدوا، كما أنهم حين لم يجدوا ما يقوتهم ندب النبي صلى الله عليه وسلم إلى إعانتهم، وفيهم نزل قول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ" إلى قوله "لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ" الآية فوصفهم الله تعالى بأوصاف منها أنهم أحصروا في سبيل الله أي منعوا وحبسوا حين قصدوا الجهاد مع نبيه صلى الله عليه ووسلم كأن العدو أحصرهم فلا يستطيعون ضربا في الأرض لا لاتخاذ المسكن ولا للمعاش كأن العدو قد أحاط بالمدينة فلا هم يقدرون على الجهاد حتى يكسبوا من غنائمه، ولا هم يتفرغون للتجارة أو غيرها لخوفهم من الكفار ولضعفهم في أول الأمر، فلم يجدوا سبيلا للكسب أصلا....، وفيهم أيضا نزل: "لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ"، ألا ترى كيف قال (أُخرِجُوا)، ولم يقل خرجوا؟ فإنه قد كان يحتمل أن يخرجوا اختيارا، فبان أنهم إنما خرجوا منها اضطرارا، ولو وجدوا سبيلا أن لا يخرجوا لفعلوا، ففيه دليل على أن الخروج من المال اختيارا ليس بمقصود للشارع وهو الذي تدل عليه أدلة الشريعة، فلأجل ذلك بوّأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الصُّفة.

فكانوا في أثناء ذلك ما بين طالب للقرآن والسنة كأبي هريرة فإنه قصر نفسه على ذلك..، وكان منهم من يتفرغ إلى ذكر الله وعبادته وقراءة القرآن، فإذا غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا معه، وإذا أقام أقام معه، حتى فتح الله على رسوله وعلى المؤمنين فصاروا إلى ما صار إليه غيرهم من الناس، ممن كان ذا أهل ومال، وطلب للمعاش، واتخاذ المسكن. لأن العذر الذي حبسهم في الصفة قد زال، فرجعوا إلى الأصل لما زال العارض. فالذي تحصل أن القعود في الصفة لم يكن مقصودا لنفسه، ولا بناء الصفة للفقراء مقصودا، بحيث يقال: ..إن ترك الاكتساب والخروج عن المال والانقطاع إلى الزوايا، يشبه حالة أهل الصُّفة، وهي الرتبة العليا لأنها تشبه بأهل صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين وصفهم الله تعالى في القرآن بقوله: " وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ

إذ لم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أحدا من صحابته بالخروج عن ماله ولا أمر صانعا بترك صنعته ولا تاجرا بالخروج عن تجارته وهم الذين كانوا أولياء الله حقا، والطالبين له صدقا.

وهذه الأمور التي قام بنشرها رجال التصوف من أحسن ما يتخذ لتهذيب النفوس وتعليم الدين فلو لزمها متصوفة العصر كما لزمها واضعو الطرق لاهتدى بهم خلق كثير ولخدموا السنة خدمة يثابون عليها من الله تعالى ويشكرهم عليها كل مسلم ولبقيت الطرق محل اعتبار وإجلال، ومرجع هدى ورشاد إلى الآن، ولانتفع بها المسلمون انتفاعهم بالأخذ عن العلماء وعمت منفعتها العوام، فإنهم أحوج الناس إلى التعلم وهم حسن اعتقاد في الأشياخ، ولكن كيف الوصول إلى ذلك وغالب المساكين جهلة لا يعرفون العقيدة الإسلامية إلا سماعا وتقليدا، وربما كان في مريدهم من هو أعلم منهم ومع

يَدْعُونَ رَبَّهُم" وقوله "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ" الآية، فإن ذلك لم يكن على ما زعم هؤلاء، بل كان على ما تقدم، والدليل من العمل أن المقصود بالصفة لم يدم ولم يثابر أهلها ولا غيرهم على البقاء فيها، ولا عمرت بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ولو كان قصد الشارع ثبوت تلك الحالة لكانوا هم أحق بفهمها أولا، ثم بإقامتها والمكث فيها عن كل شغل، وأولى بتجديد معاهدها، لكنهم لم يفعلوا ذلك البتة، فالتشبه بأهل الصفة إذا في إقامة ذلك المعنى واتخاذ الزوايا والربط لا يصح، فليفهم الموفق هذا الموضع، فإنه مزلة قدم لمن لم يأخذ دينه عن السلف الأقدمين العلماء الراسخين، ولا يظن العاقل أن القعود عن الكسب ولزوم الربط مباح أو مندوب إليه أفضل من غيره، إذ ليس ذلك صحيحا، ولن يتأتى آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها، ويكفي المسكين المغتر بعمل الشيوخ المتأخرين أن صدور هذه الطائفة المتصفين بالصوفية لم يتخذوا رباطا ولا زاوية ولا بنوا بناء يضاهون به الصفة للاجتماع على التعبد والانقطاع عن أسباب الدنيا...، وإنما محصول هؤلاء أنهم خالفوا الرسول والسلف الصالح وشيوخ الطريقة التي انتسبوا إليها ولا توفيق إلا بالله اهـ.

ذلك لا يعتقده الجهلة، لكونه لا يرعى كرامة ولا يقول كنت اليوم في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا أفيض علي من العلوم كذا ولا عارضني فلان فحصل له كذا ولا رأيت في اللوح المحفوظ كذا مما يجري كثيرا على ألسنة المبطلين الضالين.

فمن تصدى للإنكار على هؤلاء المتشيخين في الطريق وعلى جهلة الأتباع الملتزمين للبدع، وردَّ عليهم ما يفعلونه، وتقرَّب بمقتهم إلى الله تعالى فلا جناح عليه، لأن في ذلك ردعا للضالين والمبتدعين، وإعلانا للأجانب الذين ينظرون أعمالهم وينتقدون أحوالهم ويكتبون عنهم ما يكتب عن الهمج وينسبون ذلك إلى الدين الإسلامي ويجعلونه ذريعة للتوصل إلى الحط من مقام دين الإسلام والمسلمين في مؤلفاتهم ومقالاتهم، ووسيلة إلى امتلاك رقاب المسلمين واستعبادهم. إن ذلك ليس من ديننا، وإنما صدر من قوم لا خلاق لهم ولا غيرة لهم على دينهم.

نتيجة

إذا عرفت الطريق التي كان عليها الصوفية الصادقون، وما عليه متصوفة العصر المبطلون[1]، وتحققت أن كل ما أصابنا من أنواع الانحطاط والجمود والفشل والافتراق، والتنازع والتباغض والتحاسد والشقاق، إنما هو من نتائج بدع المتصوفة المبطلين التي اتبعناهم فيها واعتكفنا معهم على إقامتها، وسرت في نفوسنا سريان الدم في العروق، فلا شك أن النفس الحية الثائرة على الأكاذيب والأباطيل، تشمئز من ذلك وتسعى بجد واجتهاد في مقاومته وتستعمل جميع الوسائل لحسم مادته وإزالته، وتميل كل الميل إلى معرفة العلاج الناجع، والدواء النافع، ولهذه الغاية أبين فيما يلي ذلك مستعينا بالله تعالى فأقول:

---

[1] قلت الفرق بين الصوفية القدامى والصوفية المتأخرين، ومنهم صوفية العصر هو أن القدامى كانوا أصحاب سنة وعلم وفقه وعمل، ولم تكن لهم طريقة يلتزمونها، ويتعصبون لها، ويدعون إليها غير طريق السنة ولزوم الأدب، وإن كانوا غير معصومين من الخطأ. فعلمهم وفضلهم، وعلو قدرهم شفع لهم، وأما من بعدهم فالغالب عليهم الجهل والابتداع، وترك العمل واعتمادهم الخرافة والحيل وتعصبهم لطرقهم وأشياخهم ومسمياتهم، بغض النظر عن كون الطريقة موافقة للشرع والسنة، أو مخالفة لها، وكون شيخ الطريقة صاحب سنة وعلم وفقه وعمل، أو جاهلا صاحب بدع وخرافات، وكون هذه المسميات شرعية أو غير شرعية.

علاج الأمة الناجع ودواؤها النافع

اعلم أن علاج الأمة الناجع فيها والدواء النافع لها، إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كلف في بدايته، وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب النفوس وإيقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة، لأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة، والنفوس مطمئنة إليه، وفي زواياها نور خفي من محبته فلا يحتاج القائمون بإحياء الأمة (أعانهم الله) إلا إلى نفخة واحدة متحدة يسري نفثها في جميع الأرواح لأقرب وقت، فإذا قاموا لشؤونهم ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الإنساني.

إلا أن علاج تلك الأدواء الفتاكة التي أصيب بها الدين الإسلامي ومحاربة البدع والأحداث يجب أن يكون من جهة النابتة الجديدة والناشئة الحديثة، لا من جهة الشيوخ علماء أو عامة، لأن هذا الصنف من الناس قد استحكمت فيهم الأمراض فليس إلى شفائهم منها من سبيل.

إذا قسا القلب لم تنفعه موعظة * كالأرض إن أسبخت لم ينفع المطر[1]

لقد أسمعت لو ناديت حيا * ولكن لا حياة لمن تنادي[2]

ولو في النار تنفخ لاستنارت * ولكن أنت تنفخ في الرماد

فالخاصة يمنعهم من الرجوع إلى الحق أنفتهم واستكبارهم أن يكونوا تبعا لغيرهم من معاصريهم، وخوفهم على مراكزهم في قلوب العامة بأن يعلموا أنهم نشأوا على غير هدى في دينهم وهكذا كان شأن رؤساء الديانات وزعماء المشركين في مخالفتهم النبي صلى الله عليه وسلم.

والعامة يمنعهم من الرجوع جزمهم بأن الحق مع من يقلدونهم وأن ما يقوله غيرهم بدعة محدثة، وقد قيل لعمرو بن العاص: ما أخرك عن الدخول في الإسلام مع تقدمك في العقل؟ قال: جاءت النبوءة والزعامة بيد غيرنا ونحن أتباع ننتهي حيث ينتهون: (فلما ماتوا وأفضى الأمر إلينا نظرنا فإذا ما يدعو إليه حق فاتبعناه).

أما النابتة الجديدة فلم تعرف قلوبهم هذه المفاسد ولا وضعوا زمام أمرهم في يد أحد فيقودهم حيث شاء، بل هم أحرار، فإذا ظهر لهم الحق لم يلبثوا أن يطيروا إليه، لأن الدين يبلغ بالتسلط على صاحبه ما لا يبلغه متسلط آخر مهما كان قوي السلطان.

فالدين الإسلامي متكفل بالسعادتين الدنيوية والأخروية على وجه لا يتطرق إليه خلل ولا نقصان، إلا أنه محتاج إلى من يزيل الستار عن محاسنه، ويبين ما جاء

---

[1] البيت لابن عائشة، كما في "جامع بيان العلم وفضله" (2/ 20)

[2] قائل البيت هو عبد الرحمن بن الحكم، كما في "الأغاني" للراغب (15/ 114)، وفي "اتفاق المباني وافتراق المعاني" لأبي الربيع سليمان بن بنين الدقيقي (ص114).

به من الأخلاق الفاضلة، والسجايا الجميلة والعوائد الحسنة، التي يجب أن تكون أساسا متينا في تربية الناشئة وتهذيبها، والوسيلة الفعالة في غرس المحبة القومية في نفوسها، حتى يتأتى لها بذلك القيام بواجباتها الدينية والوطنية، لأن الأخلاق الفاضلة، والشيم الكاملة، ما انتشرت في أمة إلا وارتفع مجدها، وعلا شأنها، وتهيأت أسباب سعادتها، ونهضة الأمم والشعوب متوقفة على اتصاف أفرادها بمكارم الأخلاق وحسن المعاملة والآداب ومحو الرذائل ونشر الفضائل، وكل أمة تريد أن تسترد ما فقدته من منار عزِّها وتعيد ما ذهب من تالد مجدها وتجدد ما اندثر من معالم فخارها، وتجمع ما تبعثر من آمالها، فلا بد لها من أن تحافظ على ما بقي لها من مكارم أخلاقها وقوميتها، وإلا فلا أمل في نهوضها وحياتها.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت * فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا[1]

فالمحافظة على مكارم الأخلاق والتربية الصحيحة والعلم والعمل منتجة لتسلق الأمم في سلّم الحضارة والعمران.

فعلينا معشر الناطقين بالضاد أن نعتني بتهذيب الأخلاق وتطهيرها من شوائب النقائص والتعجيل برتق فتقنا وعلاج ضرنا.

وليس ذلك إلا باتباع الكتاب والسنة، وعدم الخروج عنهما، والحذر من الوقوع في مهاوي البدع، والقبض على الشريعة بيد من حديد، والعض عليها

---

[1] ينسب هذا البيت لأحمد شوقي.
لكن الثابت في ديوانه يخالفه في العجز، وهو كالآتي:
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت * فإن تولت مضوا في إثرها قدما

بالنواجذ، والمحافظة على قوميتنا وجنسيتنا، والاهتمام بشأن جامعتنا، والاعتناء بحفظ هيأتنا. والتعاون على إصلاح ما أفسده الدخلاء الخراصون القصاصون القناصون من ديننا، وتبيين حقيقته لإخواننا، ونشر المقالات العلمية في بيان محاسنه (التي لا تخفى إلا على من عجنت طينته بوابل الوبال، وصار محبولا بحبال الخذلان والخبال)، واستعمال الخطب الحية في محاربة البدع والمنكرات، ودفع ما يتوجه على الدين بسببها من الانتقادات والاعتراضات، لنبرهن على أننا خير أمة أخرجت للناس، وأن ديننا خير الأديان.

وبهذا تخالط بشاشة الدين الإسلامي القلوب، وتحل الحقائق محل الخرافات وتقوم المحاسن مقام المساوي، وتنطبع صور الأخلاق الجميلة في مرءاة أفكار الناشئة الصقيلة، فنصون عندئذ هيكل جامعتنا من التداعي والانهدام، ونسير في طريق السعادة فلا نلبث أن نحل ربوعها – حقق الله رجاءنا وبلغ مقاصدنا وألف قلوبنا وأمدّنا بروح منه إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيئين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم، والحمد لله رب العالمين.

قال مؤلفه عفا المولى عنه: فرغت من تحرير هذا التقييد في رابع عشر محرم الحرام فاتح سنة 1341 هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية[1].

[1] الموافق 16 شتنبر 1922م.

الحمد لله ذي الطول والجلال، والصلاة والسلام على نبعة الفضل والكمال، وبعد فقد نجز طبع هذه الرسالة الموسومة (بإظهار الحقيقة وعلاج الخليقة) لمؤلفها الغيور ذي الشعور العالي المفضل الفقيه السيد (محمد المكي الناصري) دعته إلى إعمال القلم في هذا الموضوع الخطير همة إسلامية، وفطرة لم تدنسها المطامع الأشعبية، كثر الله من أمثاله، للنسج على منواله.

وقد اعتنى بنشرها وإبرازها بحلة الطبع الفقيه النبيه الشيخ أبو عبد الله محمد بن العباس القباج جزاه الله أحسن الجزاء. وكان المباشر لطبعها والواقف على محكم وضعها، البارع النشيط السيد الجيلاني الفلاح الذي طالما أفاد بنشرياته، وضحى نفيس سويعاته، بمطبعة "النهضة" الناهضة، وفق الله الأمة للعمل الصالح، والمنهج الواضح.

ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى * ولكنما الأهواء عمت فأعمت

معاوية التميمي

حول التقاريظ

(قال بعض الحكماء: يحسن التقريظ للأدوية والأشياء المجهولة فقط، والكتاب بصدقه ورصانة أسلوبه يقرظ نفسه وإلا فقد أسقطها)

****

لقد رأيت أيها القارئ كلمة ذلك الحكيم المحكمة، وطالعت تلك الجملة المقدمة، فأنا أرجوك (عفوا وكرما) أن تغطي عما في كتابي من العيوب، وأن تنظره نظرة الحبيب إلى المحبوب.

لأنه أول ما طرزته يدي في التصنيف، وأخرجته إلى عالم التأليف، فهو لا يقرظ نفسه بنفسه، ولا يستحق أن يقرظ من غيره.

لكن الفكر أوحى إلي أن أعرضه على حلة أشياخي الأفاضل المحتفين بالفضائل والفواضل، فعرضته عليهم لأستجلي أفكارهم فيه، وأنظر هل أحيد عن ذلك الطريق أو لا أزال أقتفيه، فما رأيت منهم إلا تشجيعا وتعضيدا وتقريظا وتحبيذا.

وحيث كان ذلك موافقا للفكرة التي وضعت تأليفي لنشرها وبثها، ومنضدا للطريقة التي سلكت فيها وأسعى لبثها، فها أنا ذا أوافيك بتقاريظهم لا لقصد مدح الكتاب، بل لغاية أسمى وهي تعضيد ما فيه من الحق والصواب.

التقريظ الأول

وهو لأخي وشيخي رئيس شعراء الحماسة أبي عبد الله الناصري [1]، وهو أول من وقف عليه:

هذا علاج الخليقه * تلوح فيه الحقيقه

لمن أراد الطريقه * وحاز خير سليقه

ووسع العلم ضيقه

إلى اتباعه بادر * ونهجه لا تغادر

ففيه تجلي البصاير * ويهتدي كل حائر

يبغي علاج الخليقه

****

التقريظ الثاني

وهو لشيخ الشيوخ رئيس العلماء والمنادبين، شيخ الجماعة الرباطية سيدي أبي حامد البطاوري [2]، وهو ثاني من وقف عليه:

---

[1] - هو محمد بن اليمني الناصري، شقيق محمد المكي الناصري، ولد بمدينة الرباط، من أشهر شيوخه: أبو شعيب الدكالي، توفي بالمدينة النبوية يوم الجمعة العاشر من صفر سنة (1391 هـ).

[2] - هو الشيخ المكي بن محمد بن علي الشرشالي الشهير بالبطاوري الرباطي، حامل راية التحقيق بالرباط وشيخ الجماعة به، المشارك المدرس، له اليد الطولى في الأدب والحديث والتفسير وعلوم الآلة، توفي رحمه الله في صبيحة يوم الأربعاء ثاني محرم الحرام 1355هـ الموافق 1936م.

هـذا دواء البريـه * تبين مـنـه الـمـزيـه

لمن أحب المزايـا * وحاز خير السجيه

فالعلم كنز ثمين * لـمـن نـحاه بنيـه

معتكفا بحمـاه * بالعـزم والأريحيه

****

التقريظ الثالث

(وهو لشيخي المشهور ورئيس شعراء السياسة أبي عبد الله الجندري وهـو ثالث من وقف عليه):

هذا علاج الخليقه * به الشفـاء حـقـيـقـه

وحسبنا وكـفانا * إظـهـاره للحقـيـقـه

حقيقـة وحيـاتي[1] * لبـالـظـهـور حـقيقـه

كنا نراها مجازا * واليوم صارت حقيقه

التقريظ الرابع

(وهو لشيخي المشارك العلامة مندوب المعارف الإسلامية أبي عبد الله

[1] إن كان المقرظ يقصد بهذا الحلف بحياته فهذا من الشرك، ففي الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك"، فالحلف بغير الله شرك أصغر إن كان الحالف لا يقصد تعظيم المحلوف به، كما يعظم الله عز وجل. وإن كان يقصد به تعظيم المحلوف به كتعظيم الله فهو شرك أكبر.

الحجوي[1] وهو آخر من وقف عليه)

هـذا ظـهور الحقيقـه * من دين خير الخليقه

فانشره نشر الطـريقه * ولا تـزايل طـريقـه

تكن علاج الخليقه

نصحت يا شيخ فنّ * على حـداثـة سـن

للدين قمت بـديـن * أديـت دون تـأن

وسعت للقلب ضيقه

جـزاك ربي خـيـرا * ولا ترى الدهر ضيرا

يعود بُسْرك تمـرا * كـذا هـلالـك بـدرا

بجاه مجلي الحقيقه[2]

---

[1] - محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري الفلالي (1291 - 1376 هـ = 1874 - 1956 م) عالم مالكي سلفي، درس في القرويين ودرَّس بها، تقلد عدة مناصب في عهد الحماية منها: السفارة في الجزائر، وزارة العدل، فوزارة المعارف، توفي بالرباط، ودفن بفاس، ثم نقل رفاته إلى مكان مجهول، لهد عدة تواليف في الفقه والتربية والتعليم والتفسير والأدب والتاريخ

[2] - إن كان المقرظ يقصد بهذا جاه النبي صلى الله عليه وسلم فهذا من التوسل المبتدع، ولعل من يفعله أو يعتقد جوازه فهمه من حديث الضرير الذي أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ادع الله أن يعافيني، فقال لـه: "إن شئت أخرت ذلك فهو خير لك، وإن شئت دعوت". قال: فادعُه، فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فيقضيها لي، اللهم فشفعه في وشفعني فيه. قال: فقام وقد أبصر.

قلت: وليس في الحديث ما يفيد ذلك، بل إن الذي فيه هو طلب هذا الرجل من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله لـه، وعليه فالتوسل هنا وقع بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم لا بجاهه، وإبطال هذا التوسل المبتدع عليه أدلة كثيرة، تنظر في كتاب "التوسل والوسيلة" لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكتاب "التوسل أنواعه وأحكامه" للشيخ الألباني رحمهما الله تعالى.

فهرس

إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة